الرحلات العلمية للجزائريين باتجاه المشرق العربي

الدكتور خير الدين يوسف شترة

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة

المقدمة

إن الحديث عن الرحلة العلمية نحو المشرق تفصيلاً وتحديدًا يفرض على الباحث في الموضوع الفصل بين أمرين هامين، وهما الغرضان الأساسيان للرحلات العلمية نحو المشرق العربي واللذان يمثلاًن طورًا في البحث عن التحصيل والتفقه في الدين، وطورًا آخر في أداء فريضة الحج فقط، ثم الرجوع إلى أرض الوطن.

ومن المحطات المشرقية التي كان علماء الجزائر خلال هذه الفترة يقفون عندها، أو يتوجهون إليها: الإسكندرية والقاهرة والقدس ومكة والمدينة وبغداد والشام ولكل اتجاه من اتجاهات الجزائريين عبر العصور أسباب ومُبررات يصعب حصرها، وإن كان الطابع الذي يغلب عليه هو الطابع الديني ـ العلمي، وقد يتقدم العامل الديني في العصور الأولى لدخول الإسلام أرض إفريقية العامل العلمي، واستمر الوضع هكذا مدة قرون بل إلى وقت قريب منا، لسبب بسيط هو عدم فصل الجزائريين عامة بين الدين والعلم، ففي نظرهم فإنَّ الأول يُكمل الثاني والعكس صحيح، فالعالم الحق حسب معيار العصر كان عليه أن يكون عالمًا وفقيهًا في دينه قبل أن ينصرف إلى الدراسة والتحصيل في أمور دنياه وما يُحيط به من ظواهر مادية وما يتعلق بها فلسفةً وسياسةً واجتماعًا واقتصادًا وثقافةً، ومن المعلوم أن المشرق العربي منذ دخول الإسلام بلاد إفريقية واتصال العرب بها

مباشرة قد جلب أنظار أهل البلاد إليه بمختلف اهتماماتهم ومنازلهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية[1].

لكن لماذا هذه الدراسة حول الرحلات العلمية للجزائريين باتجاه المشرق العربي؟ إن الأمر لا يعدوا أن يكون محاولة لسد فراغ حقيقي في هذا الجانب لأنَّ الإطار العام لهذه الدراسة يهدف إلى إعادة الاعتبار لبعض الشخصيات الجزائرية التي قادت حركة التربية والتعليم والإصلاح خارج قائمة الأسماء التي اعتدنا الحديث عنها من دون غمط حق الجميع، مع إعطاء مساحة أكبر لطبيعة الأدوار التي قام بها المهاجرون الجزائريون إلى المشرق العربي داخل المحيط التعليمي والصحفي والسياسي والثقافي والاجتماعي في كل من الجزائر والأقطار المشرقية التي ارتحلوا إليها أو استقروا بها.

1 ـ الرحلة والترحال باتجاه المشرق العربي (الماهية والتاريخ)

لا ريب أن نوعية الشخصيات والأسر التي غادرت الجزائر أثناء تلك المراحل الأولى للاحتلال كانت في الغالب على مستوى الرقي والمنزلة، ويكفي أن نستحضر أسماء وسير بعض تلك الشخصيات والأسر المهاجرة ونتعرف على شيء مما قدر لهم أن ينجزوه في ديار مغترَبهم وما ظفروا به من اعتبار حيثما حلوا، لندرك حجم الخسارة التي مني بها الوطن نتيجة ظاهرة الهجرة التي عرفها يومذاك، فلا نستغرب إذا ما رأينا المفتين عدم جواز هجرة العلماء مخافة أن يلحق الضرر بالناس حين يفتقدون التأطير الفقهي والشرعي.

فقد أفتى الشيخ "علي بن الحفاف" بعدم جواز هجرة العالم عند الضرورة «بقاء العالم للناس خير له من انتقاله لنفسه»[2]، لقد كانت الجزائر قبل الاحتلال

---

(1) عن هذه العلاقات بين الجزائر والمشرق العربي وخصوصا خلال العهد العثماني راجع: ـ العيد (مسعود)، "العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق"، سيرتا، ع1، قسنطينة، 1979م ص.ص(46 ـ 54).

(2) الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، الجزائر: مطبعة بيير فونتانه، 1907م ص82.

تتوفر على احتياط مهم من الكفاءات المعرفية، فعلى الرغم مما يقال عن أحوال المسلمين عامة خلال القرن (19)م وما قبله فإنَّ الجزائر كانت تتوفر على احتياط هام من الكفاءات مما يدل على أن العطاء الثقافي في الوطن لم يكن شحيحا ولا عقيما، وإنما على العكس من ذلك كان عطاء مثمرا بدليل أن الزمر من حملة العلم والدين غادروا الوطن في تلك المراحل كانت زمرا مهمة من حيث النوعية والكفاءة، وأنها أثبتت مستواها ببروزها في البيئات حيث حلت واكتسبت الشأن والمكانة[1].

ومن خلال تتبعنا للمثقفين الجزائريين ومساهماتهم في تونس، والذين عاشوا خلال القرن (19م) تبين لنا أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أصناف فمنهم من دخل في خدمة الحكومة التونسية واستكتب فيها ومنهم من رحل إلى تونس طلبا العلم بها وساهم في فترة تعلمه ليرجع بعدها إلى بلاده أما الصنف الأخير فهو الذي أقام في تونس إقامة مؤقتة أو دخلها لفترة محدودة، ثم انتقل منها حيث مقصده الذي كان عادة مشرقيا، أما الصنف الذي كان أكثر فعالية فهو الصنف الذي استقر بتونس استقرارا دائما[2].

ويكفي أن نذكّر في هذا السياق بأسرة الشيخ محمد بن عزوز البرجي رب تلك الأسرة البسكرية التي استوطنت نفطة بالقطر التونسي وأسست زاويتها بها وخرّجت أفرادا من بينها ومنهم من بلغ في الشهرة كل مبلغ، فقد ارتحل الشيخ "مصطفى بن عزوز" إلى جنوب تونس عام 1837م، وأنشأ زاوية الرحمانية بنفطة ومضت الوفود الطلابية من الجنوب الجزائري ومن الشرق القسنطيني وبلاد القبائل وغيرها بل ومن أقطار تونس وليبيا تتهاطل على الزاوية، تتزود من تعاليمها وتجدد روحيتها، وتستمر تلك الزاوية على نشاطها الثقافي والمعنوي

(1) عشراتي(سليمان)، العالم الإسلامي خلال القرنين 18م، 19م، الجزائر: دار الغرب للنشر، 2004 ص 225.

(2) خير الدين (شترة)، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج1، الجزائر، دار البصائر، 2012م، ص. ص (118 ـ 165).

وسيبرز دورها القومي والوطني في عهد الاحتلال خاصة، إذ ستتحول إلى قاعدة خلفية يلجأ إليها المكافحون الجزائريون، كلما اشتدت الضغوط عليهم[1].

وقد كان للزاوية دور مهم لاسيما في مجال تخريج العلماء والمثقفين والطبقة المتنورة التي كان لها نشاط تعليمي في الجزائر وغيرها من الأوطان المغاربية، وحسبنا أن نحصى أسماء بعضهم من أمثال الشيخ علي بن عمر(1830 ـ 1891م)، صاحب زاوية طولقة[2]، وقاسم بن محمد علي الخيراني الجزائري(1890م)[3]، والعربي بن عطية البوعبدلي الشلفي[4] ولعل أشهرهم على الإطلاق هو الشيخ محمد بن عيسى الجزائري (1828ـ 1892م)[5] العالم باللغة والتفسير، الذي تولى بتونس رئاسة الكتابة العامة ثم خطة الإنشاء سنة1885م، ثم انقطع عن العلم إلى أن توفي وكانت له مساهمات كبيرة في الحياة الفكرية التونسية، ومنهم أيضاً الشيخ عبد الحفيظ صاحب زاوية خنقة سيدي ناجي والشيخ المدني التواتي والشيخ مبارك بن خويدم وغيرهم كثيرون[6]، وكان شأن الزاوية الرحمانية قد علا بالمكانة التي بلغها الشيخ المكي بن عزوز بن الشيخ مصطفى، فقد نال الشيخ المكي منصب مفتي في نفطة ثم ما برح أن استدعي إلى الزيتونة مدرسا.

ونذكر في هذا السياق أن الزاوية العزوزية نفسها قد نشأت من خلال سيرة روحية تلقت مددها ونالت حاجتها مما حظيت به من أسباب الفتح في ديار الهجرة والمغترب، إذ ورث الشيخ بن عزوز البرجي السر عن شيخه العالم

---

(1) عشراتي (سليمان)، العالم الإسلامي خلال القرنين (18 ـ 19م)، الجزائر: دار الغرب للنشر، 2004م، 226.

(2) راجع ترجمته في: ـ نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983م، ص 189.

(3) نفسه، ص 205.

(4) نفسه، ص 189.

(5) الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص 528.

(6) نفسه، ج2، ص 320.

الصالح الولي الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهري، لقد بلغ من كثافة المهاجرين الجزائريين إلى الأوطان العربية والإسلامية وإلى تونس بالخصوص حدا قامت لهم معه كيانات بارزة ومتميزة، واكتسبوا المواقع البارزة، بحيث عاشوا جاليات متلاحمة ومتصاهرة، ويمكننا أن نسترسل في إحصاء أسماء الشخصيات والأسر الجزائرية التي ساقتها ظروف الهجرة إلى تونس، وكتب لها أن تحقق وجودها بما نالت من علم وأنجزت من أعلام ليس لأنَّ البيئة هناك قد ساعدتها على البروز أو أن الحظ كان على موعد معها، ولكن لأنَّ تلك الشخصيات والأسر كانت مهيأة للظهور وأنه لم يدفعها إلى الإقدام على التغرب إلا ما كان لها من شأن، وإلى ما كانت تشعر به من همة أبت عليها أن تساكن ظروفا لا تفيها حق الإنسانية الكريمة.

إن هجرة العالم لا تعني هجرة فرد أو أسرة إنما هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة، وكانت ظروف اجتماعية وسياسية وعلمية ودينية دفعت كثيرا من علماء الجزائر إلى الهجرة وكانت في مقدمة الظروف الاجتماعية: عدم وجود مدن علمية زاهرة[1]، فمدينة الجزائر العاصمة كانت معدومة النشاط العلمي، وقد وصفها الرحالة العبدري بقوله: «وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف الكربة، وأديب يؤنس الغربة فكأنني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض النوق»[2].

ويذهب جل الباحثين والمهتمين بالحركة الثقافية والعلمية في الجزائر إلى أن رحلة علماء الجزائر وطلاب العلم رحلتان، إحداهما مشرقية وأخرى مغربية، غير أن التعمق في البحث قد يثبت غير ذلك إثباتا قاطعا، ذلك لأننا وقفنا على علماء جزائريين رحلوا إلى الأندلس في فترات متقدمة من دخول الإسلام إلى إفريقيا

---

(1) عميراوي (أحميدة)، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: دار الهدى، 2005م، ص 55.

(2) يخلف (رمضان)، عبد الرحمان الثعالبي ومنهجه في التفسير، ماجستير كلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر: 1992م، ص 13.

قبل أن يرحلوا إل المشرق العربي، وأن بعضهم قبل أن يقصد هذا الجزء الأخير من الوطن العربي اتجه إلى العاصمة الأولى العلمية والثقافية التي هي القيروان، وفي فترة متأخرة نسبيا (ق6هـ/ق12م)، أضحت فاس محطة أخرى لعلماء الجزائر وطلابها فقصدها البعض منهم للتفقه في دينه ودنياه[1]، ولقد تعددت أسباب هذه الهجرات العلمية وتنوعت دوافعها ويمكن أن نميّز من بينها:

ـ **الرحلة فرارا من جور الظالمين**، وذلك لاكتساب المدد وإعداد العدة للكرة عليهم، وإخراجهم من البلاد ذودا عن الدين والوطن وخصوصاً بعد صدور قانون التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي عام 1912م، وكان الإصرار على رفض هذا التجنيد من أبرز أسباب هذه الهجرة.

ـ **الرحلة بقصد زيارة البقاع المقدسة** بالحجاز كهدف أولي، حيث كانت هذه الرحلة للحجيج الجزائريين تسمح لهم وهم في طريق ذهابهم أو عودتهم أن يعرّجوا على بعض البلدان الشقيقة فيربطوا بعض الصلات الأخوية والثقافية مع بعض رجالاتها مفكرين وأدباء، وكثيرا ما كانوا يستقرون بتلك البلاد أملا في الالتحاق بمعاهدها وجوامعها، كما فعل ذلك ابن باديس أثناء عودته إلى الجزائر من رحلته إلى الحجاز، فقد عرج على سوريا ولبنان ومصر التي مكث بها حوالي ثلاثة شهور اتصل خلالها ببعض رجال العلم والإصلاح بها، كان من بينهم الشيخ "محمد بخيت المطيعي"، شيخ جامع الأزهر الذي أجاز ابن باديس الذي كان قد حضر بعض مجالسه.

ـ **ونظرًا لارتباط هذه الرحلات بعملية طلب العلم**، هذا يدل على أن الجزائريين قد حرموا من طرف المستعمر من حقهم في طلب العلم، ولهذا نجدهم يشدون الرحال طلبا للعلم ونشدانًا للمعرفة معتقدين أنهما من أنجع

---

(1) هلال (عمار)، العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين (19 ـ 20م) (13 ـ 14هـ)، الجزائر: د.م.ج، 1995م، ص 60.

الأسباب وأمثلها في مساعدتهم على الخلاص من محنتهم فكانوا لذلك يهاجرون إلى البلاد الشقيقة لينهلوا من معين جامعاتها، ومراكز العلم بها ما يروون به ظمأهم للعلوم والمعارف[1].

وكانت تونس تأتي في المرتبة الأولى كمقصد لطلاب العلم من الجزائريين هؤلاء الذين كان كثير منهم قد انخرط في أسلاك التعليم بالزيتونة، وقد استقر ببعضهم المقام في تلك الديار فمكث بها وترقى نفر منهم إلى درجات عالية على سلّم المعرفة، وأما غالبيتهم فقد حملوا في صدورهم ما حصلوا عليه من الزاد العلمي، ثم ولوا وجوههم شطر أرض الوطن آيبين إلى حماه عاملين على إقالته من عثرته وإنهاضه من كبوته، يقول عبد الله ركيبي[2]: «إنّ دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالا قبلنا تهدف إلى أن تتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرم من ثقافته وتراثه القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن».

ومنذ أوائل القرن العشرين أصبح بعض الجزائريين يهاجرون من أجل العلم ثم العودة في غالب الأحيان، لقد لاحظ محمد بيرم خلال السبعينات من القرن (19م) أن طلب العلم كان أحد أسباب الهجرة التي لا يعود أصحابها بعدها إلى الجزائر، أما المهاجرون في طلب العلم منذ القرن العشرين فكانوا غالبا يغيبون مؤقتا ثم يعودون بعلمهم[3].

---

(1) بن سمينة (محمد)، في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: مطبعة الكاهنة، 2003، ص.ص(60 ـ 61).

(2) سعيدوني(نصر الدين)، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بيروت: دار الغرب الإسلامي 2000م، ص 480.

(3) سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م، ص368.

وعن هذا الموضوع ودور جمعية العلماء في تشجيعه كتب البشير الإبراهيمي ما يلي: «كما كان من آثار ذلك التعليم المثمر الذي خاضته جمعية العلماء أن نشأت الرغبة بشباب الأمة في الاندفاع إلى العلم والرحلة في طلبه حيث ما كان فرحلة المئات منهم إلى جامع الزيتونة وقد أنساهم الحرص ما يجب من احتياطات فوقع الكثير منهم في المحذور، وجمعية العلماء هي التي أنشأت هذه الرغبة المتأججة في نفوس الشباب، ولا تلومهم ولا تثبطهم على هذا الاندفاع، وإنما ترى أن الرحلة وقطع آلاف الأميال في سبيل التعليم الابتدائي ليست من العقل ولا من السداد»[1].

ومن خلال سنوات الثورة المسلحة توقفت حركة التربية والتعليم الوطنية وحلّ محلها لغة الرصاص والبندقية كما كان الحال في القرن (19م)، لأنَّ الإدارة الاستعمارية أغلقت معظم المعاهد والمدارس التعليمية وطاردت العلماء والمدرسين والمعلمين، ومن حسن حظ الشعب الجزائري أن الشيخ الإبراهيمي وجبهة التحرير الوطني أوليا الكثير من الاهتمام بهذا الجانب التربوي والتعليمي وشجعا هجرة الشباب الجزائري إلى الجامعات العربية والأوربية للتزود بالعلوم والمعارف استعدادا للمستقبل الواعد[2]، فالشيخ الإبراهيمي منذ عام 1952م، وهو يجوب بلدان المشرق العربي الإسلامي لفتح أبواب معاهدها، وجامعاتها للطلاب الجزائريين وخلال جولاته هذه سقط من سلم الطائرة بباكستان عام 1957م، وأصيب بكسر في ركبته، وجبهة التحرير الوطني هي الأخرى كلفت ممثليها في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بأن يسعوا من جانبهم لفتح أبواب معاهد وجامعات بلدان أوروبا وأمريكا للطلاب الجزائريين خاصة بعد إعلان إضراب 19 ماي 1956م، من طرف الطلبة في الجزائر وفرنسا ونجحوا في

(1) "إحياء التعليم المسجدي بمدينة قسنطينة "، البصائر: ع07، سII، 1947/09/09.

(2) بوعزيز (يحي)، «أوضاع التعليم في الجزائر خلال الثورة(1954 ـ 1962)"، مجلة الهداية، ع160 تونس: سنة 29، أفريل 2004م، ص 79.

مسعاهم وتحصل المئات من الطلبة الجزائريين على منح دراسية في مختلف التخصصات وكانوا النواة الأساسية لحركة التربية والتعليم في الجزائر غداة تحررها من الاستعمار نهائيا عام 1962م[1].

2 ـ دوافع الرحلات العلمية:

إن هذا السؤال قد لا يطرح في القديم، ولكنه في عصرنا جديرٌ بالإجابة عنه لأنَّه قد يظن أو يعتقد أن الوطن الجزائري كان خلواً من الدور الثقافية التي تُشبع نهم طلبة العلم وتفتّق قرائحهم، وتقرّ عيون العلماء، والحقيقة التاريخية أن الوطن الجزائري كان وما زال يهتم بالعلم والعلماء، ولكن شهرة بعض المراكز كالزيتونة والقرويين والأزهر... قد تشرئب لها الأعناق لما لها من تقاليد مكنتها من استقطاب وجود العلماء فكانت منارات يهتدى بها، ولا ضير في أن يكون الجزائريون وليس استثناء من غيرهم، فهناك الليبيون والمغاربة والتونسيون وغيرهم هاجروا إلى أماكن خارج بلدانهم لطلب العلم ويمكن أن نعدّد الأسباب كالآتي:

فالرحلة إلى المشرق العربي كانت تضرب عصفورين بحجر واحد، وهما التفقّه في الدين وطلب العلم وأداء مناسك الحج أو العمرة، فكان ذلك مدعاة للهجرة والبعض استمرأ الجو هناك ولم يمكث في إحدى تلك الأقطار المشرقية، أما الرحلة إلى تونس بالذات فكانت لأجل طلب العلم والاحتكاك بالعلم والعلماء أو لأجل الفرار من بطش الاستعمار إضافة إلى العوامل التي عددْناها في دوافع الهجرة في الباب الأول... إذن فإنَّ السبب الديني والعلمي هما الدافعان البارزان لحركة طلبة العلم من الجزائر باتجاه الحواضر العلمية وقد كان لجامع الزيتونة دور كبير في استقطاب كثير من الجزائريين وخاصة في مرحلة الاستعمار الفرنسي، وفي الجملة فهناك عدة عوامل كانت سببا في هجرة العلماء وطلبة العلم الجزائريين إلى تونس هي:

---

(1) نفسه، ص80.

ـ **العامل الروحي**: وجود شيوخ طرق صوفية مشهورين في تونس، بل أن الزوايا الأم لأشهر الطرق الصوفية في الجزائر هي موجودة بتونس، وحركة المريدين من وإلى تونس شكّلت مع تكرارها وكثافتها دافعاً لحركة هجرة طلبة العلم باتجاه المراكز التعليمية الكبرى ومن بينها مركز التعليم في الزوايا والمدارس القرآنية.

ـ **العامل الاستعماري**: إن مقارنة بسيطة بين الوضع التعليمي في الجزائر ونظيره في تونس يتبيّن لنا التعليم العربي الإسلامي في هذه الأخيرة قبيل الحماية قد وصل بواسطة إصلاحات خير الدين إلى مستوى متطوّر نسبياً، ذلك أن حياة فكرية تنشط داخل وخارج الزيتونة، وكذلك في كل المدن الكبرى بالبلاد؛ وفي هذا الصدد نبّه "لويما شويل" والوكيل العام "بول كامبون" إلى أنه «من مصلحة الحماية معرفة نظام وهياكل التعليم العمومي قدوة بأفكار"جول فيري" في الجزائر»[1]، وطاعة لأوامر المقيم العام "كمبون" صاحب مقولة «يجب الترميم ولا التخريب، والتطوير لا التدمير، الإحاطة ولا التحكم مباشرة»، ويذكر مسؤول في إدارة التعليم العمومي في تقرير للمقيم العام (إنه من بين الأغلاط الكبرى التي نرتكبها في تونس إذا نحاول أن نوقف نشر التعليم أو الحد منه؛ إذ يجب تجنب الوقوع في نفس الهفوات التي وقعت بها الإدارة في الجزائر في بداية الاحتلال بدون أي فائدة لا للتأثير الفرنسي ولا لنشر لغتنا[2].

وفي هذا السياق كان للسياسة الاستعمارية هذا الاتجاه، تطوير التأثير الفرنسي بين الأهالي ونشر التعليم الرسمي بالبلاد وهذا لن يتحقق طبعا إلا في غياب أي معارضة أو مقاومة لتجربة المدارس الفرنكو ـ عربية التي من شأنها

---

(1) Machuel (L) ،l'Enseignement public en Tunisie (188319 - 06) ،Tunis: Imprimerie Rapid19 ،06 ،P21.

(2) العياشي (مختار)، الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص32.

طبعا بالتعايش من أجل الشباب التونسي والأوربي منذ الصبا داخل الأقسام المدرسية بنفس المؤسسة أن تسمح بالاتصال المباشر والحوار والتفاهم من أجل التسامح التبادل والتقارب ما بين التونسيين والأوربيين.

وفي الجزائر كتب لوي ماشوال أنه لم يعد بإمكان العائلات الميسورة منح أبنائها تكوينًا عربيًا كافيًا في بلادهم فأرسلوهم لدراسة لغتهم وعلوم قانونية ودينهم إلى خارج البلاد إلى المغرب خصوصاً أين يتلقون شعورًا مناوئًا لنا وأين تعلّموا كُرهنا، وكانت الإدارة الاستعمارية ترى في كل المدارس الإسلامية هناك معاقل تطرق ديني فيتم تدميرها من دون حساب لنتائج ذلك والتي لا تمت إلى سلوك شعب متحضر، ثم يضيف قائلاً بأن: "كل شيء في تونس يشير لنا بأن نتجنب الهفوات التي ارتكبت في الجزائر وأن لا نجرح الشعور الإسلامي في هذا الجانب ولا نمس من سمعة المؤسسة الجامعية الزيتونية التي تمثل فخرهم بل بالعكس إعانة الوطنيين على تطوير وأهمية مؤسساتهم وإصلاح تعليمها»[1].

إن هذا الوضع التعليمي المزري هو الذي جعل فرحات عباس يصرخ قائلاً: «لم يبق من حل سوى الرشاشات» وذلك في الوقت الذي بدأ فيه اختبار القوة في تونس والمغرب... وعلى هذا فقد ازدادت خطوة الوطنيين ووسّع العلماء شبكة مدارسهم ونفوذهم ودرّبوا جيلا من الشباب متّجها بكليته إلى المشرق العربي»[2].

كما أن تطبيق فرنسا لقانون التجنيد الإجباري ابتداءً من سنة 1912م على المسلمين الجزائريين جعل الشباب الجزائري يفرون إلى تونس والمشرق العربي بحجّة طلب العلم وهذا خوفا من استدعائهم لأداء الخدمة العسكرية، لهذا

---

(1) العياشي، الزيتونة والزيتونيين، ص32.

(2) أجيرون (شارل روبير)، تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، بيروت: منشورات عويدات، 1982م، ص 156.

نلاحظ أن نِسب البعثات تكاد تكون الأعلى خلال فترات الحروب والمواجهات العسكرية سواء مع خصومها أو في مستعمراتها (1912 ـ 1946م) (1952 ـ 1955م)، خصوصاً وأنّ فيه فتاوى شرعية تحرّم على المسلمين الجزائريين الانضمام إلى جيش الاستعمار الفرنسي كفتوى الشيخ عبد الحليم بن سماية عام 1912م وفتوى الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1939م[1].

ـ العامل العلمي:

إن من أهم دوافع توجّه الطلبة الجزائريين إلى الخارج لأجل طلب العلم هو حب الاستزادة من العلم الشرعي والتبقر فيه وتضايقهم من سياسة القهر الاستعمارية المسلط عليهم في الجزائر مع وجود حرية نسبية في طلبه في تونس، ويعتبر التعليم هو المؤهل الأساسي للحصول على أي عمل لائق داخل الوطن ولو أتيحت الفرصة لأكبر عدد ممكن من أبناء الجزائر في الصغر أن يتعلموا لما كانت هناك ضرورة الهجرة، وإذا كانت الخطة الرامية لإبقاء الأغلبية الساحقة من الجزائريين أميين حتى لا يفطنوا ويتعرّفوا على حقوقهم السياسية نتيجة غير مباشرة لها أثر كبير على حياة عدد لا يحصى من سكان الجزائر وهي عدم إمكانية معرفة القراءة والكتابة.

وتدل إحصائيات 1944م أن عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة بلغ عددهم 150000 مسلم ولم تتح فرص التعليم الابتدائي إلا لـ 11000 شاب من مجموع العدد المذكور آنفا، أي بمعدل واحد من جملة أحد عشرة، وأتيحت له الفرصة ليزاول تعليمه في إحدى المدارس، ولو نظرنا إلى المستوى التعليم الثانوي أو الجامعي الذي يعتبر أساسي للإطارات المتوسطة الجزائرية

(1) عيساوي (أحمد)، الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب بن مبروك، الجزائر: مطبعة الفنون الخطية 2005م، ص21، يراجع أيضاً سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص409.

لوجدنا أن نسبة الجزائريين الذين واصلوا تعليمهم ضئيلة، والحقائق المتوفرة على هذا الموضوع تؤكد أن هناك شابا جزائريًا واحدًا من جملة (175) تلميذًا قد استطاع أن يبلُغ مرحلة التعليم الثانوي في حين كانت نسبة التلاميذ الأوربيين واحدًا من جملة ثلاثة[1].

والشيء المؤلم بالنسبة للجزائريين الذين لم تتح لهم فرصة التعليم ببلادهم هو أن أبناء الشعب هم الذين يتحملون العبء الثقيل في تمويل التعليم خاصة وأن الضرائب الباهظة تفرض عليهم بدون قياس، وحرمانهم من التعليم حتّم على عدد كبير منهم الهجرة إلى الخارج[2]، يضاف إلى ذلك المستوى العلمي الراقي الذي كانت تتمتع به المؤسسات التعليمية في تونس، وفي هذا المضمار يقول عبد الله ركيبي: «...إن دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالا قبلنا، تهدف إلى أن نتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية، ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرم من ثقافته وتراثه القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس، فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن»[3].

ـ العامل الأمني:

وجود حياة هادئة ورخاء في العيش، مع وجود سلطة سياسية تحترم العلم وأهله وتعتني بهم[4]، فالفرنسيون لم يعطوا أي مكانة للعلماء وطلبة العلم رغم

---

(1) Favrod (charles) ،la Révolution Algérienne ،Paris: plon19 ،59. ،P126.

(2) بوحوش (عمار)، "أسباب الهجرة إلى فرنسا"، الثقافة، ع14، الجزائر: أفريل/ماي 1973م، ص161.

(3) سعيدوني، شهادات، ص 480.

(4) عميراوي (أحميدة)، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني، قسنطينة: دار البعث، 2002م، ص26.

تعهدهم في وثيقة الاستسلام (1930/07/5م)، واستبْقوْا فقط بعض المناصب الرمزية (الشكلية) كمنصب المفتي في المدن الرئيسية بصفة رجل دين يستعان به، وفي حالة معارضته لنظام الاستعمار ينفى، وهو ما حصل لكثير من علماء الجزائر ولعل أشهرهم المفتي شيخ الإسلام "محمود ابن العنابي"، فتكون فرنسا بهذه السياسة قد اصطنعت إسلاما خاصاً بها في الجزائر.

ـ العمل الدعائي:

لقد لعب هذا العامل دوراً حاسماً في تحديد وجهة طلاب العلم بعد أن حرَّض وحثّ الشباب الجزائريين على ضرورة الهجرة من أجل الاستزادة في العلوم والتفقه في الدين فمن بلدة نفطة بالجريد التونسي حتى العاصمة التونسية، كانت المدارس والزوايا التونسية مشرّعة الأبواب لأفواج طلاب العلم على النحو الذي تفصّله مذكرات الأستاذ مالك بن نبي في قوله: «كان في تبسة فوران في الأفكار حقا يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون إلى تونس ولا يفوتا أن نذكر أنهم كانوا على سنة تبسة سنّها شيخ من نفطة بالحدود الجزائرية التونسية التي كانت آنذاك المركز الثقافي الذي يؤمّه طلاب العلم الذين كانوا حفظوا القرآن عن ظهر قلب في زاوية سيدي ابن سعيد أو زاوية سيدي عبد الرحمان والذين لم يكونوا قادرين على القيام بدراساتهم العليا في الزيتونة بتونس...»[1].

ـ عامل جمعية العلماء والشيخ عبد الحميد بن باديس:

لقد كان من آثار ذلك التعليم المثمر الذي خاضته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن لجت الرغبة بشباب الأمة في الاندفاع إلى العلماء والرحلة في طلبه حيث ما كان فرحلت المئات منهم إلى جامع الزيتونة، وقد أنساهم الحرص ما يجب من احتياطات فوقع الكثير منهم في المحذور، وجمعية العلماء هي التي

(1) مذكرات شاهد القرن، ج1، تر: مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969م، ص 134.

أنشأت هذه الرغبة المتأججة في نفوس الشباب ولا تلومهم وتثبّطهم عن هذا الاندفاع[1] ويواصل الشيخ الإبراهيمي في هذه المقالة ذكر مآثر جمعية العلماء في هذه المثلبة، غير أنه سجل أيضاً جانبها السلبي ذلك أن الطلبة الجزائريون وانطلاقا من الدوافع التي ذكرناها مجتمعة كانوا يرحلون إلى تونس انطلاقا من مداريسهم وكتاتيبهم بمعنى آخر أن تعليمهم الابتدائي المتوفر أصلا في مدارس الجمعية يستنكفون عنه ويسرّون على نيله في تونس رغم أن البرامج واحدة والإمكانيات واحدة، «إن الرحلة وقطع آلاف الأميال في سبيل التعليم الابتدائي ليست من العقل ولا من السداد، وما دامت معاهدنا الثلاثة كليات فالواجب أن لا يرحل إليها إلا من استكمل التعليم الابتدائي في وطنه، وقطع مراحله في مكاتبه أو مدارسه أو زواياه واستعد للتعليم الثانوي، فهناك تحسِن به الرحلة وتكون لها فائدة، وهذا واجب تشترك فيه الأمة والجمعية والطلبة»[2].

كما كان لحركة بن باديس التربوية التعليمية التي شُرع فيها منذ انتصابه للتدريس بقسنطينة سنة 1913م إثر تخرّجه من جامعة الزيتونة أثر عظيم في طلابه المتوافدين على رحاب الجامع الأخضر بقسنطينة من كل أرجاء الجزائر أثر في العقول والقلوب والسلوك لم تشهده البيئة الجزائرية من قبل مما جعل الإمام محمد البشير الإبراهيمي يقرر في مقدمه كتاب "سجل مؤتمر جمعية العلماء المنعقد بنادي الترقي في العاصمة في سبتمبر 1935م" «أن من العوامل الأساسية في نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقّة التي كان يبثّها في نفوسهم الطاهرة النقية والإعداد البعيد المدى الذي يغذّي به أرواحهم الوثّابة الفتية... فما كادت تنقضي مدة حتى كان

(1) الإبراهيمي، "إحياء التعليم المسجدي"، البصائر، ع7، ص01.
(2) نفسه.

الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات... ثم زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضاً كتيبة جرّارة سلاحها الفكرة الحيّة الصحيحة إلى جامع الزيتونة لتُكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح بناءً علميًا محكَمًا، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر، فكان من مجموعها وممن تخرج بعدها من تلاميذ الأستاذ ومن تلاميذ جامع الزيتونة جنود الإصلاح اليوم وقادتُه وأولويتُه المرفرفة وأسلحته النافذة»[1].

ولكي يحضّهم على طلب العلم لأجل خدمة وطنهم دون سواه، خاطب الشيخ عبد الحميد بن باديس الطلبة الجزائريين المتخرّجين من جامع الزيتونة في حفل تكريمي أقامته جمعية التربية والتعليم بقسنطينة أواخر شهر جويلية 1939م قائلاً لهم: «إنكم رجعتم إلى وطنكم تحملون شهادات علمية ومن أجل ذلك كنتم جديرين بهذا التكريم.. وإذا كان أبناء الشقيقة تونس، يدرسون العلم في الزيتونة ليصبحوا موظفين في بلادهم فإنَّ فضلكم الوحيد هو أنّكم تقرؤون العلم للعلم وليس للوظيف وهو فضل كبير، فكونوا عند حُسن ظن أمّتكم بكم، كونوا على استعداد لأداء واجبكم نحو وطنكم...»[2].

ويذكر أهل قمار أن زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لهم في الثلاثينات من القرن العشرين قد أذْكت روح النهضة في القرية، ونتيجة لذلك ولانتشار الحركة السياسية الوطنية ولتأثير الحرب العالمية الثانية، سافر عدد من شبان قمار إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وكان هؤلاء الشبان يعودون في صيف كل عام فيتصلون بشبان جدد وينشرون بينهم أفكار جديدة، فكان عدد الذاهبين إلى تونس يزداد في خريف كل سنة إلى أن كنت من بين هؤلاء المجنّدين عام 1947م[3].

---

(1) الشهاب، ج11، مج 10، الجزائر: أكتوبر 1934م.

(2) مرحوم (علي)، «لمحات من حياة ابن باديس"، الأصالة، ع 24، الجزائر، ص.ص(106 ـ 107).

(3) سعد الله (أبو القاسم)، منطلقات فكرية، بيروت: الدار العربية للكتاب، 1977م، ص44.

ويقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في كلمة بعث بها إلى الطالب عبد الرحمن شيبان ليلقيها نيابة عنه في الحفل الذي أقامته جمعية الطلبة الزيتونيين بتونس احتفالاً بالذكرى السابعة لوفاة الإمام بن باديس: «... أيها الإخوان، أيها الأبناء، لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن لفقيدنا العزيز عبد الحميد بن باديس منّة على كل من يحمل بين جنبيه روحًا جديدةً أو فكرةً سديدةً من أبناء الجزائر أينما كانوا، لا فرق في ذلك بين طلاب العلم وبين غيرهم من طلاب الحياة في جميع فروعها وإن من دلائل الوفاء وشكر الصنيع في نفوس أولئك الطلاب أن ينهجوا نهجه في التفكير وطرائق الإصلاح ويتعاونوا على إكمال ما بدأ بوضعه من أسس العلم والحياة».

ويقول الشيخ الفاضل بن عاشور في هذه المناسبة ذاتها: «إن فضل النهضة الجزائرية على العالم الإسلامي فضل عظيم وأن أثر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تلك النهضة أثر إنشائي رئيسي... وما تكريمنا للشيخ عبد الحميد بن باديس إلا تكريم العبقرية الفكرية والنزعة الفلسفية التي دفعت به فريدًا إلى موقف إحياء التعاليم الفلسفية في وطن أوشكت شمس إسلام أن تتقلص في ربوعه بعد ثمانيين عاما قضاها في أغلال الأسر»[1].

ويمكن القول بأن لهذه الرحلات انطلاقاً من الدوافع المختلفة هدفا موحدا يتمثل في الاتصال بالعلماء والمثقفين التونسيين وتبادل وجهات النظر معهم وتجريد الصلة بهم... إلا أن هناك عوامل ذاتية (شخصية) خاصة بكل طالب بحيث أنها اختلفت من رحالة إلى آخر.

فلقد تحدَّث أبو القاسم سعد الله في كتابه (شاعر الجزائر) عن دوافع ارتحال محمد العيد آل الخليفة إلى تونس قائلاً: «...توجه محمد العيد إلى تونس

---

(1) شيبان (عبد الرحمان)، مقدمة مجلة الشهاب، بيروت: دار الغرب الإسلامي2000م، ص.ص(131 ـ 132).

لمواصلة دراسته في جامعها الأعظم وكان لذلك أسبابه... فشيخه الزيتوني ابن إبراهيم الذي ملأ حياته العلمية والذي كان يشبع نهمه إلى المعرفة قد مات... إضافة إلى أن الجرائد التونسية التي تصل إلى الجزائر محملة بأخبار نهضتها الوطنية والأدبية كان لها أثرها في تحفيزه إلى الهجرة والترحال»[1].

كما أن الطالب المولود الحافظي (1880 ـ 1948م) وبعد رحلة شاقة وسفر بلا زاد ولا رفيق قد اجتاز الحدود الشرقية نحو تونس العاصمة مشيا على القدمين يغمره الخوف والجوع لسبب آخر هو وعيد أبيه له بقتله، فأبوه الصديق بن العربي كان قد تورط في قتل أحد أقاربه وتمّ سجنه بقسنطينة مما اضطر ابنه المولود وكان صغيرا في سنه أن يتقدم إلى بعض المحامين ليتولى الدفاع عن أبيه أمام الجهات القضائية ونظرا للظروف القاسية التي خلفها سجن والده، اضطر ابنه المولود إلى بيع قطعة أرض لتسديد نفقات التنقل من بني حافظ (دائرة بني ورتيلان) إلى قسنطينة وكذا أتعاب المحامي فكان الجزاء الذي واجه به الأب هذا الفعل من قبل ابنه أن توعده بالقتل وباليمين المغلظة، والمولود لا يخفى عليه بأن أباه إذا توعد أنجز وإذا هدّد نفّذ، وأدرك بأن نهاية حياته ليست بعيدة ولا تتجاوز فترة وجود أبيه في السجن... ومع خروج والده غادر ناحية بلدته باتجاه تونس[2].

كما روى لي الشيخ محمد علي كرام[3] أن السبب المباشر لهجرته إلى الزيتونة هو أن أهله قد اضطروه وهو صغير على الزواج من ابنة عمه التي سميت له حينما كانا صغارا، وفرارا من هذه الوضعية أضطر محمد علي كرام إلى الهروب نحو تونس بحجة مواصلة التعلم.

---

(1) سعد الله (أبو القاسم)، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م. ص 23.

(2) آيت علجت (محمد الصالح)، الشيخ المولود الحافظي، الجزائر: منشورات دار الكتاب، 1998م، ص 29.

(3) مقابلة مع الأستاذ محمد علي كرام، مسجد بلال بن رباح ـ بلوغين ـ الجزائر، الأربعاء 2006/04/05م (17: 00 ـ 19: 00).

كذلك فإنَّ حزب الشعب الجزائري قد جعل قضية نشر التعليم العربي من جملة اهتماماته واتخذ منها سلاحا لدفع الحركة الوطنية إلى الإمام وإثارة اهتمام المواطنين بمقوّمات الشخصية الجزائرية ووجوب المحافظة عليها وليس غريبا أن يهتم حزب الشعب بنشر التعليم العربي فهو الوارث الشرعي لحركة نجم إفريقيا هذه الأخيرة التي طالبت منذ عام 1933م، في برنامجها السياسي بوجوب «فرض التعليم الإجباري باللغة العربية وفسح المجال للطلاب لدخول المدارس على جميع المستويات وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الدوائر الحكومية»، ومن هذا سعى حزب الشعب إلى المساهمة وإن كانت متواضعة في نشر التعليم العربي بين كوادره وأسّس عددا لا بأس به من المدارس الابتدائية في العاصمة وبعض المدن الأخرى كما أنه أرسل عددا من الطلاب على نفقته الخاصة للدراسة في جامع الزيتونة في تونس»[1].

لقد شملت موجة المهاجرين الشبان زعماء المستقبل لجمعية العلماء وتحت تأثير روح الإصلاح في الجزائر وحركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى قضى هؤلاء الزعماء كل فترة شبابهم خارج وطنهم أين تعلموا ليس فقط الأفكار النظرية عن الحضارة الإسلامية بل أيضاً التصورات العامة عن مشاكل وقوى العالم كله، كما أن الكتاب الفرنسيين يكادون يتفقون على إرجاع أصل الفكرة الإصلاحية لدى العلماء إلى الحركة الوهابية والجامعة الإسلامية... والحق أن العلماء أنفسهم لم ينكروا علاقتهم بهذه الحركات

3 ـ تطور الرحلات العلمية الجزائرية إلى المشرق العربي

لقد كانت بغداد مقر الخلافة الإسلامية بالنسبة لعلماء الجزائر خلال المرحلة الأولى من حركتهم نحو هذا الجزء من الوطن العربي، المحطة الأولى التي

---

(1) تركي (رابح)، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1981م.، ص.ص (244 ـ 245).

بواسطتها اتصلوا فيما بعد بالأقطار المشرقية الأخرى وفي مقدمتها مصر ثم القدس ثم الحجاز، وإن كانت مصر محطة سفر لا بد من المرور بها بالنسبة للجزائريين وخلال القرنين (09 ـ 11م) ثبت لنا إحصائيًا أن 40% من العلماء الجزائريين قد توجهوا نحو العراق لأغراض مختلفة فمنهم من قصدها طلبًا للعلم، ومنهم من أراد اختبار معارفه وتأكيداته هناك، ومنهم المرتحل والسائح وذلك شأن بكر بن حماد التاهرتي وسعيد الوهراني وعلي القلعي، وكلهم عاشوا فيما بين القرنين (9 ـ 11م)[1].

والمميّز في حركة العلماء الجزائريين نحو المشرق العربي هو أن فترة تكاثف وجودهم هناك كانت فيما بين القرنين (12 ـ 15م)، بحيث نجد عددًا هامًا من المثقفين الجزائريين هناك، وقد مرت هذه الهجرات العلمية بعدة مراحل، لكن ما يهمنا فيها هي المراحل المتأخرة التي لها علاقة بموضوعنا بدءًا بالقرن (19م) وهو قرن يُشكل حدًا فاصلاً بين مرحلتين: مرحلة التقهقر العلمي والثقافي، ومرحلة إدراك الذات أي الصحوة التي يمكن تحديد بدايتها بشكل أدق بالربع الأخير من القرن (18م)، بحيث برزت في البلاد مؤشرات جديدة ثقافية وعلمية ودينية واجتماعية تمثَلت في بروز عناصر تثقفت أولاً وتشبعت بالثقافة العربية الإسلامية، ثم اهتمت ثانيةً بتعلم لغة المستعمر والاطلاع على حضارته؛ الشيء الذي مكّنها من إدراك وبوعي ما كان يتخبط فيه الشعب الجزائري من جهل وفقر ومرض مدقع، مما جعل هذه الفئة من الجزائريين المثقفين تهتم بقضايا الإصلاح بمفهومه الواسع الديني والاجتماعي والأخلاقي والتربوي وطبيعي أن لا تبرز أسماء هؤلاء في دراستنا هذه، لأنَّ جلهم مثل: عبد القادر المجاوي[*] ،

---

(1) هلال (عمار)، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، الجزائر: د، م، ج، 1995م.، ص 209.

(*) عبد القادر المجاوي «1848 ـ 1913»، راجع ترجمته في: الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ، ص446.

وابن الموهوب[**]، ين سماية[1] وغيرهم، إما أنهم لم يرحلوا إلى المشرق العربي وإذا رحلوا فقد رحلوا باتجاه آخر غير المشرق وبالتالي غابت أسماؤهم من قائمتنا التي تخص العلماء الذين لهم علاقة مباشرة بالمشرق فقط.

ومن أبرز مميزات هذا العصر هو إنشاء فكرة الإصلاح بين العلماء الجزائريين وخاصة منهم أولئك الذين تعلموا في المشرق حيث تأثروا بالإصلاح بمفهومه الواسع وبرجاله هناك فنقلوا الفكرة إلى الجزائر فزرع بذرتها ثلّة من العلماء منذ مطلع القرن التاسع عشر (19م) ونبتت في مطلع القرن العشرين وتطورت خلال عشريناته وأعطت ثمارها في ثلاثيناته وعلماء هذا العهد ينقسمون إلى قسمين:

- قسم ينتمي إلى المدرسة الكلاسيكية القديمة، والذي اقتنى ثقافة أساسها العلوم الدينية واللغوية كالحديث والنحو والتفسير.

- وقسم ينتمي إلى المدرسة العصرية التي تمزج العلوم الأصلية مع العلوم الحديثة وفق منهج علمي معاصر[2].

وعلى الرغم من أن العصر عصر انحطاط علمي وحضاري فإنَّ ذلك لا يمنعنا من ملاحظة بعض الأسماء المتميّزة مثل: صالح السمعوني ومصطفى الكبابطي وحمودة المقايسي[3]، وقد يأتي في مقدمة هؤلاء المهاجرين "ابن عدون يوسف"

(**) ابن الموهوب (مولود) «1866 ـ 1939م»، راجع ترجمته في: جريدة النجاح، ع2289، جوان 1939م، الزاهري (محمد الهادي)، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، تونس: المطبعة التونسية، 1926م، ص31.

(1) بن سماية (عبد الحليم) «1866 ـ 1933م»، راجع ترجمته في: ـ نويهض (عادل)، المرجع السابق، ص. ص(178 ـ 179). ـ دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص. ص(106 ـ 125).

(2) يراجع، سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص. ص(130 ـ 147).

(3) هلال، المرجع السابق، ص 316.

(1747 ـ 1808م)، وكان من أوائل من اعتنق الإصلاح في وقته، ولد ونشأ في بني يسجن وخلف الشيخ عبد العزيز الثميني في إمامة مسجد بني يسجن، شدّ رحاله إلى المشرق واستقر بالقاهرة بعد أداء فريضة الحج مدة أربع سنين حيث لقي أكابر علمائها فأخذ وأعطى قال عنه الشيخ أبو اليقظان: «رأيت له مؤلفات مخطوطة هي غاية في النفاسة وحسن النسيج والترتيب منها كتاب في سيرة النبي ﷺ وأرجوزة في بضعة آلاف في الشريعة وأسرارها»، أقام في مصر أربع سنين يَحضر دروس كبار علماء الأزهر، وفي طريق عودته إلى الجزائر عرّج على تونس وبقي فيها مدة حيث شارك في حياتها الفكرية ونهضتها العلمية»[1].

ومنهم أيضاً "المقايسي" المتوفي سنة 1829م الذي ولد ونشأ بمدينة الجزائر ثم رحل إلى المشرق واستقر بالقاهرة، حيث أكمل تعليمه بالأزهر على يد كبار علمائها[2].

ومن علماء هذا العصر في مصر، "علي بن محمد الميلي الجمالي" المتوفي سنة 1833م ولد في ميلة حيث تعلّم ثم رحل إلى مصر واستقر بها، وتوفي بالقاهرة، له أكثر من اثني عشر مؤلفاً في الفقه وعلْم الكلام[3].

ومن الذين هاجروا إلى مصر في النصف الأول من القرن 19م "محمود بن العنابي" (1775 ـ 1850م)، وهو فقيه حنفي وقاض من أوائل المصلحين لهذا العصر أصله من عنابة ولد وتعلم بمدينة الجزائر وأبوه "الحسين ابن العنابي" المتوفي سنة 1737م، وكان هو أيضاً فقيهًا ومُفسرًا معتبراً، ولّي الإفتاء في مدينة الجزائر أربع مرات، وتوفي بها شأنه شأن ابنه محمود الذي تولى قضاء الحنفية لمدينة الجزائر عدة مرات وكتب للداي "أحمد باشا" الذي تولى الحكم سنة 1805م، وفي بداية

---

(1) دبوز، نهضة، ج1، ص282.

(2) الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص140.

(3) الزركلي (خير الدين)، الأعلام (قاموس التراجم)، ج7، بيروت: دار العلم للملايين، 1980م ص77.

العشرينيات من القرن الماضي شدّ ابن العنابي رحاله إلى المشرق واستقر لمدة في الإسكندرية حيث ألَّف كتابه (السعي المحمود) عام 1927م، ومنها انتقل إلى الحجاز فأدى فريضة الحج ثم عاد إلى الجزائر عبر تونس بحوالي سنة قبل احتلالها من قبل الفرنسيين سنة 1830م[1].

وعندما سقطت العاصمة قرر كلوزيل طرده منها حيث توجه صوب الإسكندرية وهناك تولى في عهد (محمد علي) الإفتاء الحنفي حتى سنة (1850م)، حيث عزله (عباس باشا)[2]، وهكذا لاذ بن العنابي بالصمت إلى أن لقي ربه بعد ذلك بنحو سنة تاركًا وراءه في مصر ذكرًا طيبًا وجهدًا كبيرًا.

وفي إطار الاستنزاف البشري الذي استهدفت من خلاله فرنسا إفراغ الجزائر من رجالها المؤثرين في الساحة الاجتماعية والسياسية والثقافية، أبعد إلى المشرق قدور بن محمد رويلة (ت1855م)[3] والخالدي محمد بن عبد الله (1813 ـ 1866م)، كما أبعد إلى مصر بن الكبابطي (ت1860م)[4]، ومن أصحاب السيف والتعلم في دمشق محمد بن الخروبي القلعي (ت1862م)، ومحمد السعيد بن

---

(1) راجع عنه: سعد الله (أبو القاسم)، المفتي الجزائري بن العنابي رائد التجديد الإسلامي، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1977م، ص 19. ـ الزهار (أحمد الشريف)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تح، توفيق المدني، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1975م، ص127. ـ حمدان بن خوجة (بن عثمان)، مذكرات، تق: ابن عبد الكريم محمد، بيروت: 1972م، ص. ص (221 ـ 224). ـ بن قينة (عمر)، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، الجزائر: د، م، ج، 1993م، ص. ص(19 ـ 22).

(2) نفسه، ص 21. راجع: ـ حمدان بن خوجة، المصدر السابق، ص 161.

(3) راجع عنه: تشرشل(هنري)، حياة الأمير عبد القادر، ط2، تح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1982م.

(4) للتوسع في الهجرات العلمية الجزائرية إلى جامع الأزهر راجع: ـ الشوكي (عبد الرحمان السيد)، مصر والحركة الوطنية في الجزائر منذ (ح ع 1) حتى الاستقلال، ماجستير في التاريخ الحديث جامعة القاهرة، قسم التاريخ، مصر: 1991م ص.ص(86 ـ 88) ـ (150 ـ 155). وعن مكانة الأزهر داخل المجتمع الجزائري ص. ص(150 ـ 153)، وعن البعثات العلمية ص. ص(153 ـ 155).

محي الدين الحسني الجزائري (ت1861م)، وصالح بن أحمد السمعوني (1824 ـ 1868م) ومنهم مصطفى التهامي المعروف بالمغربي (ت1867م) الذي تولى إمامة المالكية بجامع بني أمية بدمشق وقد تخرّج على يده كثير من علماء دمشق، منهم الشيخ "عبد السلام الشطي" الشهير في زمانه[1].

ومن العلماء الجزائريين المناهضين للاستعمار الفرنسي والذين دخلوا الحجاز ثم عادوا إلى الجزائر العالم "علي بن الحفاف" (ت1890م)[2]، وهو صاحب الفتوى الشهيرة التي حكم فيها بالكفر على علماء مدينة الجزائر الذين لم يهاجروا بعد الاحتلال الفرنسي لها أو لم يلتحقوا بالجبال، ومن علماء هذا العصر في عُمان، "إبراهيم بن يوسف بن عيسى أطفيش" (ت1893م)، وهو عالم إباضي له اهتمامات بالغة بعلم الكيمياء، وكان قد أكمل تعليمه بالأزهر، وبعُمان كرّس حياته للتدريس فانتفعت بعلمه أجيال كثيرة ومن طلبة العلم الميزابيين[3] أيضاً هناك من منطقة بني ميزاب "محمد بن عيسى أزبار" الذي رحل إلى المشرق واستقر بعُمان مدة كبيرة، وبعد عودته إلى وادي ميزاب فاز بمشيخة علماء وادي ميزاب حيث توفي[4]، في نفس السياق هاجر إلى المشرق العربي أيضاً "محيي الدين بن مصطفى الحسني" (1776 ـ 1834م) وهو ابن الأمير عبد القادر حيث تعلّم بمصر والحجاز والعراق وكذا "المازوني الصادق" (ت1838م) و"المهدي السقلاوي" الصوفي الرحماني، و"أحمد الأغريسي" الذي تولى خطة القضاء في عدة مدن بالمشرق.

أما في مرحلة القرن العشرين فقد برز في الجزائر بحكم الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المستجدة عناصر مثقفة عصرية منها الصحفي والسياسي والمصلح الاجتماعي والديني، وهي عناصر لا نكاد نجد لها أثرًا في العصور

(1) هلال، العلماء، ص 322.

(2) للتوسع أكثر يراجع: الحفناوي، المصدر السابق، ج1، 260.

(3) دبوز، نهضة، ج2، ص 284.

(4) نفسه، ج1، ص 283.

السابقة، وهذه الفئة من المتنوّرين الجزائريين خلال هذا العصر تثقفت في أغلبها في المشرق، ولكن بنسب متفاوتة كميًا، فسوريا قد استضافت مثلاً من هؤلاء نسبة 45، 71 %، ومصر 25، 71 % أما الحجاز فقد حظي بنسبة 17، 14%[1].

وإذا كان دور كل من مصر وسوريا معروفين في احتضانهما للطبقة المثقفة الجزائرية عبر العصور فإنَّ دور الحجاز غير معروف، وطبيعي أن تضم قائمة المهاجرين من طلبة العلم إلى المشرق شخصيات كان لها أثر كبير في الحياة الجزائرية من كل النواحي الأدبية والفكرية مثل مالك بن نبي، رضا حوحو، البشير الإبراهيمي، حمدان الونيسي، الفضيل الورتيلاني، الطيب العقبي، هواري بومدين، العربي التبسي وغيرهم وإذا رتبنّاهم حسب تاريخ وفاتهم، ففي سوريا يأتي في مقدمتهم "محمد مرتضى الحسن الجزائري"(1827 ـ 1901م)، ولد وتعلم بالقيطنة هاجر إلى بلاد الشام وسكن بيروت حيث نشر العلم والمعرفة، وتخرّج على يده كثير من علماء الشام منهم "محمد الحصني" صاحب منتخبات التواريخ وغيره[2].

ومن بيت الأمير عبد القادر في دمشق أيضاً "أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسيني" (1833 ـ 1902م)[3]، وهو عالم فاضل شقيق الأمير عبد القادر رحل إلى دمشق، وأخذ عن كبار علمائها وعن شقيقه "محمد سعيد" وابن أخيه مرتضى، ثم أقرأ في داره فنونًا متنوعة وكذلك يقول عنه أحدهم: «كان عالمًا زاهدًا حسن السيرة والسريرة، محبوبًا عند الخاص والعام، ألوفًا متواضعًا في أخريات أيامه جنح إلى التصوف... ومات بدمشق»[4].

---

(1) هلال، العلماء، ص 328.

(2) للتوسع يراجع ـ دي طرازي (فيليب)، تاريخ الصحافة العربية، ج2، بيروت: المطبعة الأدبية 1913م، ص119.

(3) الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 229.

(4) هلال، العلماء، ص332.

ومن رجال الصحافة والسياسة في مصر "محمد الشريف بك الجزائري" الذي كان حيًا سنة 1904م، وهو أديب وكاتب وصحفي من رجال السياسة البارزين في أواخر القرن (19م) عاش في مصر ومُنح لقب البكوية تقديرًا لجهوده وجهاده في خدمة الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، أصدر في القاهرة صحيفة "البوستة" سنة (1896م)، وبسبب نشاطه السياسي نُفي من مصر إلى فرنسا سنة (1903م)، واستمر يُراسل صحيفته من منفاه حتى توقفت عن الصدور سنة 1904م[1].

ومن أوائل المصلحين الجزائريين الذين تعلموا في مصر "صالح بن مهنا" (1854 ـ 1910م) وهو عالم سلفي مصلح ولد في نواحي القل، ونشأ بقسنطينة وتعلم بها وبتونس، رحل إلى المشرق طلبًا للعلم فدخل القاهرة، وأخذ عن أكابر علمائها وجلس إلى التدريس بقسنطينة وبقي هكذا إلى أن مات بها[2].

ومن طلبة العلم الجزائريين بدمشق في مطلع القرن العشرين "المبارك محمد بن محمد الجزائري" (1847 ـ 1912م)، أديب وشاعر صوفي، أصله من دلس، هاجر والده إلى دمشق بعد احتلال الفرنسيين للجزائر، ولد في بيروت ونشأ وتعلم في دمشق ومات بها[3].

ومن طلبة وادي ميزاب الذين دخلوا الحجاز، "أطفيش محمد بن يوسف" (1820 ـ 1914م) عالم بالفقه والتفسير والأدب، ولد في بني يسجن وبها نشأ، خرج إلى الحج مرتين وفي كلتيهما اغتنم الفرصة للاستزادة والاطلاع، جلس للتدريس والتأليف والوعظ إلى أن مات في مسقط رأسه، له أكثر من خمسين مؤلفًا في عدة فنون بعضها طبع، والبعض الآخر لا يزال مخطوطًا[4]، ومن العلماء الجزائريين الذين تبنوا العمل السياسي والصحفي في دمشق "محمد التهامي

---

(1) دي طرازي، المصدر السابق، ج2، ص 178.

(2) نويهض، المرجع السابق، ص323.

(3) الفاسي (عبد الحفيظ)، رياض الجنة، ج1، الرباط: 1350هـ، ص72.

(4) دبوز، نهضة، ج1، ص289.

شطة" (ت1915م)، وهو كاتب وصحفي من دعاة الإصلاح الإسلامي، ولد ونشأ في مدينة الأغواط، ولما احتلها الفرنسيون سنة 1852م انتقل إلى تونس وعندما احتل الفرنسيون تونس سنة 1881م غادرها إلى سوريا، أنشأ جريدة "المهاجر" بدمشق في 11 جانفي 1912م، ثم جريدة "الاتحاد الإسلامي" في 23 جانفي 1915م، انتقل بعدها إلى تركيا، حيث واصل نضاله السياسي دفاعًا عن القضية الإسلامية، مات بتركيا، وقد خلّف ولدين هاجرا فيما بعد إلى تونس واستقرا بها[1]، ويذكر أبو القاسم سعد الله بحسب ما ذهب إليه سهيل الخالدي: إلى أن عائلة شطة قد تكون انقرضت من دمشق وأن ثلاثة منها استشهدوا في صفوف الثورة السورية، وقال عن جريدته "المهاجر" أنها كانت يومية سياسية أدبية ـ علمية ـ تجارية ـ فكاهية، تخدم الدولة العثمانية والإسلام[2].

ومن علماء الجزائر في دمشق شهيد القضية العربية "سليم بك بن محمد سعيد الحسيني الجزائري" (1879 ـ 1916م)، قائد عسكري وشاعر وعارف باللغات، قتله الأتراك شنقًا لمجاهرته بكلمة الحق وطلب مساواة العرب بالترك، وهو ينحدر من عائلة الأمير عبد القادر، وُلد ونشأ وتلقى تعليمه في دمشق، ثم التحق بالمدرسة الحربية في استانبول وفيها تدَرج في السلك العسكري إلى أن بلغ رتبة عقيد ثم قائد أركان ثم تولى قيادة اللواء السابع خلال الحرب العالمية الأولى، كان له ولوع بالرياضيات فألف كتاباً في المنطق (ميزان الحق)، كما اخترع (بركارًا) صغيرًا، وكان يجيد عدة لغات، وقد شغل منصب أستاذ بالمدرسة الحربية باستانبول، خاض حروبًا كثيرة، أُسر في اليمن، ونجا من الموت بأعجوبة، وكان من مؤسسي جمعية "فتيان

---

(1) نويهض، المرجع السابق، ص.ص(85 ـ 86). راجع أيضاً: ـ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص.ص (604 ـ 605)، هـ2.

ـ BARDIN (Pierre): Algériens et tunisiens dans l'empire Otman de (1848à 1914)، (Paris: Ed: C.N.R.S)، 19، 79، PP(17017 ـ 1).

(2) عمار هلال، العلماء، ص334.

العرب"، و"الجمعية القحطانية"، و"جمعية العهد"، حيث أولى اهتمامًا بالغًا للقضية العربية، ونظرا لهذه الحركية المعارضة لمنهج التتريك، قُبض عليه فحكم عليه بالإعدام شنقًا ببيروت وهو لم يبلغ بعد الأربعين من عمره[1].

ومن نفس العائلة في دمشق أيضاً "عبد الباقي بن محمد السعيد بن محي الدين الجزائري" (1850 ـ 1916م)، "محي الدين (باشا)" ابن الأمير عبد القادر(1843 ـ 1918م)، "أحمد بن محي الدين" (1833 ـ 1902)، "السعيد بن محي الدين(1851 ـ 1916م)، "عز الدين بن محي الدين" (1898 ـ 1927م)، "محمد مرتضى الحسين" (1827 ـ 1901م)، "الأمير عبد المالك" (ت1924م).

وأشهر علماء الجزائر في دمشق على الإطلاق الشيخ "الطاهر الجزائري"(1852 ـ 1920م) كان من وجوه الإصلاح الديني واللغوي في سوريا وواضع الأسس الحديثة البيداغوجية والعلمية للمدرسة السورية، وكان متقنًا للكثير من اللغات الشرقية، وهو أصلاً من زواوة (أوغليس)، هاجر منها والده حوالي سنة 1847م، واستقر في دمشق وبها ولد الطاهر ونشأ وتعلم، عيّنه "مدحت باشا" مفتشًا للتعليم وأنشأ (المكتبة الظاهرية) بدمشق و(المكتبة الخالدية) بالقدس، وفرارًا من اضطهاد الأتراك بسبب مواقفه القومية حلّ بالقاهرة وأقام بها 18 سنة ولم يرجع إلى دمشق إلا بعد انتهاء الحكم العثماني لها[2].

ومنهم أيضاً بالحجاز "أحميدة بن الطيب بن علال الجزائري" (1871 ـ 1943م) وهو باحث تاريخي وعالم بالحديث والفقه المالكي، يبدو أنه من الجنوب الجزائري حيث تعلم في زاوية الهامل (بالقرب من بوسعادة) وبسبب اضطهاد الاستعمار الفرنسي له رحل إلى الشام ثم استقرّ نهائيا بالمدينة المنوّرة حيث مات[3].

---

(1) زكي(مجاهد)، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، ج2، مصر: ب.ت ص.ص(19 ـ 25).

(2) الزركلي، المرجع السابق، ج 3، ص320.

(3) نويهض، المرجع السابق، ص 294.

ومن المهاجرين في طلب العلم إلى مصر، "المولود بن محمد عمر الزريبي" (1897 ـ 1925م) كان من رواد الإصلاح في الأوراس، ولد في زريبة الواد (بسكرة)، حيث تعلّم ثم رحل إلى مصر والتحق بالجامع الأزهر حيث أكمل تعليمه، عاد إلى مسقط رأسه وبدأ حركته الإصلاحية، انتقل بعدها إلى العاصمة وتولى تحرير جريدة (الصديق الإصلاحية) سنة 1920م، وفي نفس الوقت تولى التدريس بالجامع الأعظم، مات في "بوفاريك"[1] بعد داء عضال، ومن طلبة العلم الميزابيين في المشرق "صالح بن عمر داود" (1881 ـ 1928م) وهو من كبار علماء الإباضية في المغرب الكبير، ولد في بني يسجن، حيث نشأ وتعلّم، فقد بصره في الخامسة من عمره حجّ مرتين، فحضر بعض دروس الأزهر وناقش علمائها ثم زار الحجاز، بعدها عاد إلى مسقط رأسه حيث أنشأ معهدا للعلوم الشرعية والعربية وتوفي ببني يسجن[2]، وفي نفس الفترة نجد في دمشق "عبد القادر المبارك (1887 ـ 1945م) أديب حاذق ولغوي[3]، ومنهم أيضاً في الحجاز ومصر "علي الحمامي" (1902 ـ 1949م)، وفي دمشق أيضاً نجد الزواوي محمد السعيد أبو يعلى (1878 ـ 1952م)[4].

ومن طلبة هذا العهد في الحجاز، "أحمد رضا حوحو" (1895 ـ 1956م) كاتب وأديب مجدد ولد في سيدي عقبة (بسكرة) هاجرت عائلته إلى المشرق واستقر بالمدينة المنورة، حيث أكمل تعليمه واشتغل بعدها كمدرس بمدرسة

---

(1) ناصر (محمد)، المقالة الصحفية، مج2، ص228، ـ الهادي السنوسي، المصدر السابق، ج2، ص(99 ـ 124).

(2) هلال، العلماء، ص340.

(3) للتوسع في ترجمته، يراجع: دبوز، نهضة، ج2، ص144.

(4) للتوسع راجع: ـ خدوسي (رابح)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، الجزائر: دار الحضارة، 2003م، ص48. نويهض، المرجع السابق، ص164. ـ البصائر، ع195 ـ 1948 م، ـ المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)، ج2 الجزائر: ش. و. ن. ت، 1976م، ص 130

العلوم الشرعية وسكرتير لمجلة "المنهل" إبان نشأتها، وفي سنة 1941 عُيّن مترجمًا بمديرية البرق والبريد العامة، عاد إلى الجزائر سنة 1946م فعيّن أستاذًا بمعهد بن باديس وأصدر جريدة "الشعلة"، وقام برحلات إلى الدول الاشتراكية، في أثناء الثورة التحريرية بالجزائر، قتله الفرنسيون في محنة رهيبة[1]، وفي نفس السياق (العمل الإصلاحي بالجزائر) تأتي شخصية الشيخ "العربي التبسي" (1895 ـ 1957م)، وهناك أيضاً في الحجاز "الطيب العقبي" (1890 ـ 1960م) كاتب وخطيب وصحفي، ومن مفكري هذا العصر الذين احتضنتهم القاهرة الكاتب والمفكر الإسلامي "مالك بن نبي" (1905 ـ 1973م) ولد في تبسة ونشأ وتعلّم بقسنطينة، ومنها انتقل إلى باريس التي واصل بها تعليمه العالي وتخرّج منها مهندسًا ميكانيكيًا من معهد الهندسة العالي، رحل إلى المشرق ودخل مكة، وبعض الأقطار الإسلامية الأخرى واستقر أخيرًا في القاهرة حيث أصدر معظم مؤلفاته باللغة الفرنسية وبعضها تُرجم إلى العربية، ساهم في تقديم العون للحركات الطلابية المغاربية، وبعد الاستقلال تولى إدارة التعليم العالي سنة 1964م، وكان عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، توفي بالجزائر العاصمة[2].

---

(1) للتوسع، يراجع: ـ نويهض، المرجع السابق، ص129. ـ سعد الله، دراسات في الأدب ص. ص(89 ـ 100). ـ مرتاض (عبد المالك)، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الجزائر: ش.و.ن.ت 1983م، ص. ص (155 ـ 185). ـ دوغان (أحمد)، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، الجزائر، م.و.ص.ك، 1989م ص.ص(35 ـ 40). ـ وللتوسع في مسيرته بالحجاز يراجع: الخرفي (صالح) ـ شهيد الثورة الجزائرية احمد رضا حوحو في الحجاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1992م.

(2) للتوسع يراجع: نويهض، المرجع السابق، ص282. ـ الجندي (أنور)، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، القاهرة: الدار القومية، 1965م.، ص.ص(64 ـ 67) ـ بن قينة، المرجع السابق ص.ص(259 ـ 274). ـ الجابري (محمد الصالح)، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1990 م ص. ص(138 ـ 140).

ومن المهاجرين الجزائريين خلال هذا العصر "حمدان الونيسي" (ت1912م) بالحجاز و"عبد القادر الخطابي" (ت1916م) بمصر، و"محمد بن يلس" (1852 ـ 1927م) بدمشق و"ابن عليوة" (1874 ـ 1934م) الطرقي، "والفضيل الورتيلاني" (1900 ـ 1959م)، والتلمساني "أحمد بن محمد" (ت1959م) بدمشق، و"السعدي الصديق" (1907 ـ 1970م) بمصر، و"الأمير محمد سعيد" (1881 ـ 1970م) وهو أديب مهتم بعدة علوم، مات في دمشق.

4 ـ النشاط المهجري للعلماء الجزائريين خلال الفترة (1900 ـ 1919م):

لقد كانت المرحلة الممتدة من مطلع القرن العشرين إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى، مرحلة هامة تكاد تأثيراتها تكون مشتركة بين أقطار المغرب العربي، وإذا كانت ليبيا قد دخلت في حرب شعبية مع الإيطاليين، فإنَّ الأقطار الثلاثة الأخرى (الجزائر ـ تونس ـ المغرب)، قد عاشت تجربة متشابهة؛ فالدولة المستعمرة واحدة (عدا إسبانيا في شمال المغرب)، وقد فرض الفرنسيون التجنيد الإجباري على شباب هذه الأقطار لكي يخدموا في جيشها ضد الدولة العثمانية المتحالفة مع ألمانيا، ومن خلال قانون التجنيد الإجباري الذي سنّته فرنسا عام 1912م من أجل استغلال الشباب الجزائري في أية مواجهة عسكرية ضدها نجد أنها قد عاملت طبقة الطلبة الجزائريين معاملة خاصة؟! (أما الطلبة الجزائريون فقد عوملوا معاملة خاصة وتركوا لإكمال دراستهم، مثلهم في ذلك مثل الطلبة الفرنسيين، إلا أنه لم تتوفر المساواة بينهما»[1]، وكان الاضطهاد والهروب من الخدمة العسكرية والغيرة الوطنية قد ساعدا على خروج عدد من قادة هذه الأقطار إلى المشرق وإلى أوروبا وتأليف لجان وجمعيات لتحرير بلدانهم، وكان ذلك مدعاة للتنسيق فيما بينهم والبحث عن الأنصار في الدول الأخرى ومخاطبة الرأي العام العربي والإسلامي بخطاب الاستغاثة والتعاون.

(1) Sicard(j) ،Le Monde musulman dans les possessions françaises ،Paris19 ،28 P224.

ويمكن القول: إن الحرب العالمية الأولى كانت مدرسة تعلّم فيها شباب المغرب العربي الوطنية وقيادة الأحزاب والاعتماد على الإعلام والبحث عن الأصدقاء، لذلك كانت المرحلة التالية لها "1919 ـ 1939م" تمثل مرحلة النضج لدى الحركات الوطنية والإصلاحية في المنطقة، لقد اختار الوطنيون الجزائريون والتونسيون الأستانة مقرًا لهم، حيث ستكون سياستهم أثناء الحرب العالمية الأولى، هي سياسة الجامعة الإسلامية في أغلبها وفي توافق مع الدولة العثمانية في كل شمال إفريقيا حيث اتصلوا في الأستانة بالأمير شكيب أرسلان، وسليمان الباروني، وعبد العزيز جاويش (التونسي الأصل) ومحمد فريد وألّفوا هيئة لتحرير شمال إفريقيا، تعاونت مع السنوسيين في برقة، واتصلت بعدد من الطوارق في الجنوب الليبي والجزائري[1]، ووصلت دعايتهم إلى قلب الصحراء الكبرى، وكانت هذه اللجنة وراء إمداد السيد أحمد الشريف السنوسي، ببعض ما يحتاج إليه كما كانت وراء إرسال الباروني[2] إلى طرابلس، الذي عمل هناك على إثارة حركة تحريرية تمتد من طرابلس حتى تونس والجزائر، وحاولت اللجنة أيضاً تجميع قوات من أبناء المغرب الموجودين في أوروبا وإرسالهم إلى شمال إفريقيا والمشاركة في عمليات التحرير[3]، ومنذ حوالي 1910م أسّس الشيخان صالح

(1) جلال (يحي)، المغرب العربي(العصور الحديثة)، ج4، ص، 211.

(2) الباروني(سليمان) (1873 ـ 1940م): هو بطل الحرب الطرابلسية في وجه الغزوة الإيطالية، درس في جامع الزيتونة وفي وادي ميزاب، أصدر في القاهرة جريدة "الأسد الإسلامي" سنة 1906م،. يراجع عنه في: ـ حمو (محمد عيسى النوري)، نبذة من حياة الميزابيين، ج1، باريس: دار الكروان، 1984م، ص. ص(327ـ 330)، ـ الخرفي (صالح)، عبد العزيز الثعالبي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995م ص43، ـ أبي اليقظان(الحاج إبراهيم) سليمان الباروني في أطوار حياته، ج1، ج2. الجزائر: المطبعة العربية للكتاب، 1956م.

(3) المرجع نفسه، ج4، ص. ص(242ـ 243). ـ للتوسع يراجع: ـ محفوظ (محمد)، تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، دار الغرب الإسلامي، 1982م، ص.ص (233 ـ 235).
ـ عليان الجالودي، الشيخ إسماعيل الصفايحي "دراسة في مواقفه وآثاره (1853ـ1918م) "، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع10، الجزائر: سبتمبر2001 م، ص 98 وما يليها.

الشريف وإسماعيل الصفايحي (1853 ـ 1918م) (جمعية الأخوّة الجزائرية التونسية) في إسطنبول وكان لها فرع في دمشق ينشط بين المهاجرين الذين كان أغلبهم من الجزائر، ولها فروع في بلاد الشام والحجاز، ولاسيما فرع المدينة المنورة.

وخلال نفس الفترة شارك العلماء الجزائريون في مصر داخل تنظيم يسمى (الاتحاد المغاربي) وكان صاحب الفكرة فيها هو الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد التي كانت تتبع سياسة الجامعة الإسلامية ومقر هذا التنظيم كان في الإسكندرية، وكان يرأسه محمد شرعي باشا[1] ـ الذي ربما يكون من أصول مهاجرة ـ كما كان مدعّما من طرف الخديوي عباس حلمي، وقد أرسل الإتحاد موفَدين إلى المغرب العربي وخاصة إلى المنطقة الوهرانية بالجزائر للاتصال بصف ضباط جزائريين كانوا يؤيدون الجامعة الإسلامية[2].

ونظرًا لعدم اقتناع الجزائريين بالتجنيد في الجيش الفرنسي، فإنهم بدأوا يفرون من الخدمة العسكرية من جبهة الشرق الأدنى، والجبهة الأوربية زرافات ووحدانًا والتحقوا بمواطنيهم الثائرين في الجزائر، ومن هناك واصلوا نشاطهم في شكل حرب عصابات معلنين الثورة على الاحتلال الفرنسي[3] وقد بقي بعضهم خارج الجزائر، وشكلوا مع بعض التونسيين لجانًا وطنية في جنيف وبرلين والأستانة ومصر والحجاز للدعوة لاستقلال شمال إفريقيا، ولقد وظّفت حركة الجامعة الإسلامية في مرحلتها الأخيرة العديد من رجالات الجزائر وتونس سواء من المهاجرين أو من الزعماء الذين اختاروا الشرق مستقرًا، كما جنّدت الدولة العثمانية بعض أبناء الأمير عبد القادر كمحي الدين الذي أصبح له شأن في تلك الفترة.

---

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص602.

(2) Bardine (p) ،Algériens et tunisiens dans l'empire ottoman de(1848 à 1914). Paris: ED.du C.N.R.S19 ،79 ،P.P (230 - 231)

(3) حجاج (السعيد زروق)، العالم الإسلامي في الحرب العالمية الأولى، ط1، مصر: مطبعة الأمانة، 1989، ص68.

وقد ساعدت هجرة الوطنيين الجزائريين إلى المشرق أمثال الخضر حسين والمكي بن عزوز، وصالح الشريف[1] وكذا التونسيين أمثال محمد بيرم وإسماعيل الصفايحي[2] وعلي باش حامبه، على بلورة السياسة الإسلامية نحو شمال إفريقيا[3]، ويجب أن نلاحظ أن هؤلاء جميعًا كانوا يعملون في إطار الوطن (الجزائري التونسي) وليس في إطار القطرية الضيقة، وكانت جهودهم متضافرة مع المجاهدين السابقين وأحفادهم وكانت لهم صحفهم ومنشوراتهم ونواديهم الخاصة. ومن العلماء الجزائريين الذين حلّوا باسطنبول في مطلع القرن العشرين الشيخ المكي بن عزوز (1854 ـ 1915م) سنة 1905م، الذي انتقل من إسطنبول إلى الحجاز وأسس بالمدينة المنورة "جمعية الشرفاء"سنة1913م، وهي جمعية إسلامية كان من أهدافها إثارة مناطق في إفريقيا الشمالية، فخلال أحد اجتماعاتها التي حضرها مغاربة من الجزائر وتونس ومراكش منهم القائد الأخضر من تلمسان ومحمد بن الزاوي جلول من قسنطينة تقرر إرسال مبعوثين إلى الجزائر والمغرب الأقصى بغية تحقيق أهداف الجمعية[4].ومن الجزائريين الذين نشطوا

---

(1) الشريف (صالح)، (1862 ـ 1920م).من أُصول جزائرية، ولد بتونس، كان جده الشيخ العربي بن كبار أدباء جامع الزيتونة ومن الذين أولاهم أحمد باشا الأول التدريس بجامع الزيتونة.دخل الشيخ صالح جامع الزيتونة عام 1881م ونال فيها شهادة التطويع سنة 1888م، تولى التدريس في الطبقة الأولى سنة 1894م ثم ليُسمى مدرساً بالمدرسة العصفورية سنة 1897م، ونظراً لنشاطه السياسي المكثف تعرض لمضايقات من طرف السلط الاستعمارية، اضطره إلى الهجرة إلى إستانبول سنة 1906م، كانت له أنشطة سياسية وتعليمية مكثفة في المشرق العربي وكان له دور كبير في النضال المهجري الجزائري التونسي بأوربا أثناء الحرب العالمية الأولى توفي بموفترو وعمره 58سنة.

(2) إسماعيل الصفايحي (1853ـ1918) م، تونسي من شيوخ الزيتونة، تولى القضاء الحنفي بتونس العاصمة.

(3) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 520.

(4) المرجع نفسه، ص. ص (230 ـ 233). ينظر: ـ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص603.

في إطارها الشاذلي السنوسي، ومحي الدين السنوسي، ومحمد البشير زر وق، والشيخ محمد عبد السلام التيجاني.

إن الجمعية التي أسّسها صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي سنة 1910م كانت لها فروع من أهمها فرع دمشق ومن أعضائه الشيخ الحسين ومحمد بن الصغير وكلاهما من مدينة سدراته (الجزائر) والدراجي بن الحسين والحاج إسماعيل بن محمد وكلاهما من قسنطينة ومحمد بن شطة من الأغواط[1] وفي سنة 1916م، قرّرت الحكومة العثمانية أن تؤسس في الأستانة هيئة لغزو شمال إفريقيا بالاتفاق مع رجالها اللاجئين[2]، ولما عيّن سليمان الباروني واليًا عامًا على المناطق المحرّرة في طرابلس الغرب، انتظمت مقاومته ضد الإيطاليين، ومن بين ما قام به الباروني (تلميذ محمد أطفيش الجزائريà هو أنه بعث رسُله في نشر الدعوة للجزائر وتونس، وربط الصلة بين أنْور باشا وحسن قلاتي (الجزائري)، أحد الذين بقوا في تونس من حزب علي باش حامبة، كما كان للصحفي الجزائري المحامي "محمد قدري الجزائري" دور هام في إقليم طرابلس الغرب حيث هاجر والده، وفيها أكمل دراسته وتعليمه ومنها انتقل إلى اسطنبول حتى تخرج من كلية الحقوق ولما عاد إلى طرابلس أصدر جريدته التي كانت تنطق باللغة التركية وعنوانها (تعميم حريت) وهذا لأجل قراء اللغة التركية الموجودين في الولاية، وقد توقّفت الجريدة عن الصدور خلال نوفمبر 1911م بسبب الغزو الإيطالي للبلاد، كما كانت له زيادة على ذلك عدة أنشطة ونضالات لم ينسى فيها خدمة القضية الجزائرية[3].

---

(1) Bardin (pierre)، Algériens et Tunisiens dans l'empire ottoman de (1914 ـ 1948)، Paris Ed.du C.N.R.S19، 79.p.230.

(2) الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص53. يراجع: بن ميلاد إدريس، "مرجع سابق "، م. ت. م، ع(1)، ص. 164.

(3) سعيدوني (نصر الدين)، دراسات وشهادات. ص. ص(289 ـ290).

وبالنسبة لمشاركة العلماء الجزائريين في الحرب الليبية الطرابلسية، فإذا كنا لا نعرف الكثير عنهم أمثال: مصطفى عوني والأخوة محمد ومولاي وعلي بن حميدة بن خير والحاج قاسم أبو خطوة، وأبناء بن جلول، وأبناء عائلة جبارة، وغيرهم كثيرون وخاصة من جهات الشرق الجزائري وجنوبه فإنَّ ذلك لا يعني قلة المتطوعين من الجزائر في ميادين الجهاد الطرابلسية، ولكن نحن لم نتمكن من الحصول على أسماء الأكثرية منهم لأنَّ البحث في هذه النقطة لم يتسع كثيرا خاصة على الصعيد الميداني[1].

لقد أسّس الجزائريون بصفتهم الطليعة المغاربية في المشرق العديد من الجمعيات السياسية والخيرية التي تهتم بالمغرب العربي كقضية سياسية، وبأحوال المهاجرين منه كقضية اجتماعية، كما لم تفصل هذه الجمعيات بين قطر مغربي وآخر، إذ مارسوا فيه أجمل وأرقى الممارسات الوحدوية المغربية وبرهنوا واقعيًا على إمكانية قيام هذه الوحدة فإنهم لم يفصلوا هذه الجمعيات ونضالها عن نضالهم في الأقطار التي هاجروا إليها. وقد ساندت هذه الجمعيات بشكل ملحوظ النضال ضد الاحتلال الفرنسي لتونس، فمن المعروف أن الجزائريين الذين هاجروا إلى تونس شاركوا في هذا النضال بل كانوا من مؤسسي الحركة الوطنية فيها وأسهموا أيضاً في حركتها الثقافية ومثلها شكلت هذه الجمعيات كشافة الأمير عز الدين الجزائري، فإنها أسّست نادي عمر المختار إذ كانت تساهم في الحركة الوطنية الليبية كما يدلنا على ذلك كتاب الليبيون في سوريا، وأسهمت في الحركة الوطنية في مراكش، وكل ذلك جنبًا إلى جنب مع إسهامها في الحركة الوطنية السورية والفلسطينية، ومن أشهر هذه الجمعيات جمعية مهاجري شمال إفريقيا.

---

(1) سعيدوني (نصر الدين)، دراسات وشهادات.، ص285.

نشرت جريدة المقتبس الدمشقية في عددها رقم 462، «اجتمع الجزائريون والتونسيون المقيمون في الأستانة وقرّروا تأسيس جمعية مختصة بهم وقد خطب كثيرون منهم وأبانوا شكرهم لأحرار العثمانيين»[1] وتُفيدنا الوثائق أن الأمير علي ترأس في دمشق جمعية مهمة اسمها جمعية مهاجري شمال إفريقيا كان لها رابط بين الجمعية الخيرية الإسلامية لأيالة الجزائر المحمية، التي أسّست لمعاضدة ثورة المقراني؛ وكانت جمعية مهاجري شمال إفريقيا بمثابة حزب سياسي دعا علنًا لاستقلال الجزائر وتحالفه مع الألمان ضد فرنسا، وإن رئيسها الأول الأمير على بن عبد القادر يزور الأسرى الجزائريين الذين كانوا يُساقون إلى الخدمة في الجيش الفرنسي، فيأسُرهم الجيش الألماني، وكان هؤلاء الأسرى ينظرون إلى الأمير على بن عبد القادر كأمير وطني، ولعلّ أهم وثيقة حتى الآن تدلّنا على نشاط هذه الجمعية هي الجريدة التي كانت تُصدرها باسم المهاجر، وقد صدرت هذه الأسبوعية كما يقول دي طرازي، في 1912/01/21م، وكان رئيس تحريرها كما هو وارد على صفحتها الأولى التهامي شطة الأغواطي وكان مقرها نفس مقر جمعية مهاجري شمال إفريقيا، ويبدو أن الأمير سعيد بن علي ترأس هذه الجمعية اعتبارًا من عام 1915م[2]، ويبدو أن هذه الجمعية ظلت قائمة إلى ما بعد 1946م، وإنني اعتقد أن دراسة جمعية مهاجري شمال إفريقيا دراسة تفصيلية هي أمر ضروري لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية، والحركة المغاربية، وإني أرى أنه من الأهمية بمكان التركيز على دور طلبة العلم في المشرق وأدوارهم المشرقة من خلال هذه الجمعية؛ ذلك أن من أعضاء هذه الجمعية القياديين الأمير خالد في الجزائر، والأمير عبد المالك في المغرب وغيرهما، ومنها أيضاً انبعثت الجمعيات المغاربية في مصر والشام، ومن أبرزها أيضاً:

---

(1) الخالدي (سهيل)، الإشعاع المغربي في المشرق ودور الجالية الجزائرية في الشام، الجزائر: دار الأمة، 1997م، ص164.

(2) الخالدي، المرجع نفسه، ص165.

ـ الجمعية الخيرية الإسلامية: مقرها الأستانة، ولكن لم يكن (هدفها الرسمي فقط مساعدة المهاجرين الوافدين على تركيا...»، لقد كانت اللجنة المسيّرة للجمعية المذكورة تحت رئاسة محمود شوكت وتضم بين أعضائها يوسف شتوان ـ أصيل طرابلس الغرب ـ إلى جانب صالح شريف وإسماعيل الصفا يحي وكذلك عبد العزيز جاويش[1]. لقد أصدرت الجمعية الخيرية الإسلامية، جريدة "عالم الإسلام" "Djham Islam" الناطقة بعدة لغات كالتركية والفارسية والهندية فضلاً عن العربية، وقد دأبت على حث المسلمين على رفض دفع الضرائب[2].

ـ جمعية الإخاء للجزائريين والتونسيين L'Association Fraternelle des Algéro - Tunisiens: ظهرت هي الأخرى بالقسطنطينية حوالي سنة 1915م على يد كل من صالح شريف وإسماعيل الصفايحي والفرنسي "تادي قز توفت "Thadee gasztovt"[3]، وعلى حد قول جريدة "الشباب التركي" "Le jeune turque" فإنَّ ثمانين شخصًا بين جزائريين وتونسيين مقيمين بالقسطنطينية حضرو الاجتماع مع العلم أن للجمعية عدة فروع بالمشرق العربي، أهمها فرع دمشق، الذي كان يضم العديد من الأعيان والوجهاء الجزائريين الذين تولوا تمويل نشاط الفرع المذكور[4].

من أهداف هذه الجمعية، مدّ يد المساعدة للمهاجرين والتدخل لفائدتهم لدى السلطات العثمانية كما كانت تتولى تحرير نداءات عملت على تسريبها بين سكان الجزائر لتشجيعهم على الهجرة بواسطة إغرائهم ليس فقط بالتسهيلات الموضوعة على ذمتهم، وإنما بخصوص الامتيازات التي سيحصلون عليها ورغم

---

(1) Centre de documentation National ،B ،6 - 3 - Le Panislamisme en Tunisie ،

(2) Ibid ،P3.

(3) تادي أرتور موريس قزتوفت: عون ألماني من أصل بولوني، ولد بباريس في 8 جوان 1881م، اعتنق الإسلام وتسمى باسم «سيف الدين العسكرية بتونس، عدّته سلطات الاحتلال في تونس مناصرا لأفكار الشبان الأتراك.

(4) Bardin ،Op.cit ،P230.

هذا الوجه الاجتماعي الظاهري لجمعية الإخاء فإنها مثّلت وسيلة تأطير ودعاية للجامعة الإسلامية[1].

ـ جمعية الاتحاد المغربي L'Union Maghrébine

ظهرت في القاهرة سنة 1910م، على يد العديد من الوجهاء وكبار الأثرياء من المالكين العقاريين ومن ذوي النفوذ المالي والمعنوي كرئيسها الأمير محمد شرعي باشا والشيخ على يوسف صاحب جريدة "المؤيد" وكان أمين مالها العالم الجزائري أمين باي المغربي[2]، وعلى حدّ قول خوالدية صالح فإنَّ الجمعية المذكورة كانت جمعية إغاثة وإعانة للجزائريين والمغاربة عموماً[3]. ومن جهته فإنَّ دي فرانسDe France الوزير الفرنسي المفوض بالقاهرة ـ أوضح أن ألمانيا تعوّل كثيرًا على جمعية الاتحاد المغربي في إثارة مسلمي شمال إفريقيا ضد فرنسا في صورة اندلاع حرب.

ـ جمعية الشرفاء (أو الأشراف): تشير المصادر الفرنسية إلى أنه تأسست في أواخر سنة 1913م جمعية جديدة للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وهي جمعية الشرفاء، على يد العالم الجزائري محمد المكي بن عزوز وحسب المصادر المذكورة فإنَّ جمعية الشرفاء تزمع إثارة الاضطرابات في بعض واحات أقصى الجنوبين الجزائري والتونسي وأنّ أحد مبعوثيها قد أُوفد إلى الإسكندرية في مهمة تقضي بتوجّهه إلى كل من الجزائر وتونس[4].

---

(1) العجيلي (التليلي)، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي، تونس: دار الجنوب للنشر، 2005م، ص204.

(2) العجيلي، نفسه، ص 206.

(3) BouyocR ."L'Union Maghrébin ،société de secours mutuels" ،La Tunisie Française ،du 27/11/1912. P1.
- Archives Nationales (Tunis). ، ،Série E ،C550 ،Dossier 30 ،Sous dossier 15. doc n°121 ،18 ،14 ،.

(4) Archives Nationales (Tunis). ،Série E ،C550 ،Dossier 30/23 ،doc n° 5. "Le gérant de l'Agence et du consulat général de France au caire au ministre des affaires étrangères à Paris ،Le 10/10/1913.

ـ **الاتحاد الإسلامي**: نشأت بمبادرة من الجزائري خوالدية صالح[1] الذي نشر مقال بإمضائه تحت عنوان "نداء الثورة" صدر بعدد يوم الاثنين 1جانفي 1906م من جريدة La Dépèche Tunisienne ذهب فيه إلى أن أوروبا تتّبع خطّة مُحكمة هدفها تقويض ركائز الإسلام، الأمر الذي يحتّم ـ حسب رأيه ـ على العرب تكوين جبهة موحّدة للوقوف في وجهها، ويختم دعوته الموجهة إلى بني جلدته في الجزائر بحثِّهم على الثورة على الاحتلال الفرنسي مؤكدًا لهم أنّه عند اندلاع المعركة الحاسمة ستجدون في مقدمتهم "الشرفاء المكوّنين للجنة المركزية للاتحاد الإسلامي لتحمّل المسؤولية[2] مُبرزًا أن كل قضية عادلة لابدّ لها من شهراء(كذا)» مؤكدًا في الختام أن على أوربا أن تعْلم بأنّ الأمة الإسلامية تمتلك قوّة رهيبة تمكّنها من تقرير مصيرها[3].

وفي مقال له بعنوان "الإسلام" نشرته له L'Egyptien Gazette ليوم 1906/04/02م أوضح خوالدية تعلّقه الشديد بالجامعة الإسلامية، موضحًا ما تقوم به القوى الاستعمارية من مساعي لتشتيت المسلمين قصد إضعافهم، مؤكدًا أنه ليس لهؤلاء من حل «سوى الوقوف كرجل واحد ضد المحتلين الغاصبين»[4].

ومن جهته فإنَّ محمد الخضر حسين، الذي كان قد غادر البلاد التونسية سنة 1912م، قد كتب في العديد من الصحف والمجلات المشرقية، مؤيدًا الخلافة العثمانية، داعيًا إلى توثيق عُرى الأُلْفة بين العرب والأتراك وقد كُلّف صحبة أخيه بدمشق والطيب التواتي بحَلَبْ؛ بمهمّة تقضي بالتحرّك بين المهاجرين ببلاد الشام للقيام بينهم بدعاية ضد فرنسا وتنفير الناس منها ودعوتهم إلى مقاطعة البضائع

---

(1) ـ Bouyoc، Op.Cit، P1.

(2) هلال(عمار)، "مساهمة الخالدي صالح بن عمار في التعريف بالقضية الجزائرية مغربيا وعربيًا وإسلاميًا"، الثقافة، ع 99 الجزائر: 1987م، ص 120.

(3) نفسه.

(4) هلال، مساهمة الخالدي، الثقافة، ع 99، ص 121.

الفرنسية[1]، كما تمّ كذلك تحرير نداء موجّه إلى المسلمين الخاضعين لكل من بريطانيا وفرنسا وروسيا[2]، وكان من بين الممضين العالم الجزائري عمر الورغلي (الورقلي) وكذا أحمد الشريف السنوسي.

5 ـ النشاط المهجري للعلماء الجزائريين خلال الفترة (1920مـ 1939م):

لقد غادرت الجزائر خلال هذه الفترة أفواج عديدة من العلماء الوطنيين بدءًا بفوج المكي بن عزوز وأمزيان التلمساني والخضر حسين..، الذين عاشوا متنقلين بين المشرق العربي وتركيا وألمانيا وكان شعارهم في ذلك «إما النّصر أو الشهادة»، وقد تعالت أصواتهم جريئة تهزّ آفاق الجزائر كلها لم تخمد ثورتهم بنادق المستعمرين الفرنسيين، فقد عاهدوا الوطن على الموت مادام في أرضه موطأ لقدم مستعمر[3] ثم تتالت من بعدهم خلال فترة ما بين الحربين أفواج العلماء الوطنيين المهاجرين والمهجّرين سرعان ما أكملت ملحمة النضال الطويلة، وبدأت اتصالاتها خصوصاً مع طلاب المغرب العربي في أوروبا، فكان من نتائج عملهم أن تأسّست في باريس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين التي راحت تُصدر النشرات الوحدوية وتعقد المؤتمرات والاجتماعات الدورية، وتقوم باتصالات واسعة لتُطلع الرأي العام الفرنسي على قساوة الاستعمار الفرنسي وتبثّ الوعي وروح الثورة بين كافة صفوف الطلبة المغاربة.

ومما تجدر ملاحظته أن العلماء والطلاب الجزائريين في نضالهم المستديم ضدّ الاستعمار لم يفصلوا بين الأقطار المغاربية الثلاثة، وذلك منذ تأسيسهم لأول منظمة طلابية بالجزائر العاصمة في شهر مارس من سنة 1919م، والتي عُرفت في مرحلتها الأولى تحت اسم "ودادية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا" "Amicale des Etudiant Muslmans Nord - Africaine"، غير أنّ هناك تجمّع مغربي

---

(1) العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية، ص 199.

(2) ـ Institut supérieur d'Histoire du Mouvement National (Tunis) ـ، A.M.A.E، Bobine 75، C1651، F 68، Affaires musulmanes II، Dossier unique. F 68.

(3) الطاهر (عبد الله)، الحركة الوطنية التونسية، ط2، تونس: دار المعارف للطباعة، 1990م، ص25.

آخر قدّر له أن يلعب أيضاً دورًا هامًا في بعث فكرة المغرب العربي الموّحد، ليس في فرنسا فحسب ولكن أيضاً في جميع أقطار المغرب العربي الموحّد، وهو "جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا"[1]، التي تأسّست في مطلع السنة الدراسية (1927 ـ 1928م) بباريس، وقد عقدت هذه المنظمة الطلابية المغربية عدّة مؤتمرات ثقافية وسياسية... وحضارية بقيت خالدة في تاريخ نشاطها، حيث يذكر الشيخ السعيد الزاهري أنه «اطلع على قانون هذه الجمعية فإذا هو يحتفظ بما في الجزائر من قومية ودين...»[2].

وفي الوقت الذي عزم فيه الطلبة الجزائريون بتونس على تجديد منظمتهم الطلابية (جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين) وإعطائها نفسًا جديدًا يتلاءم مع التطورات الخطيرة التي شاهدتها الساحة السياسية في الجزائر طرحت فكرة "توحيد الشبيبة المغربية" بكل معانيها: السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد طرح هذه الفكرة "محمد العيد الجباري" وهو أحد الطلبة المتخرجين من جامع الزيتونة، وتحمّس لها بقوة حتى نقلها من الميدان النظري البحت إلى ميدان الواقع الملموس، بحيث تمكّن في شهر ديسمبر 1936م من إنشاء منظمة طلابية مغاربية جمعت شمل طلاب أقطار المغرب الثلاث وقد عُرفت المنظمة في وقتها تحت اسم "شبيبة شمال إفريقيا الموحدة..[3].

---

(1) الجامعة التونسية، بناء المغرب العربي، تونس: المطبعة العصرية، 1983م، ص18.

(2) الزاهري (محمد السعيد)، الإسلام بحاجة إلى دعاية وتبشير، ط2، دمشق: مطبعة الاعتدال، 1934 م، ص29

(3) ISHMN ،A.N.O.M ،Bob ،A46 ،C 25 H32 ،Dossier 13 ،F (1212 - 1213 - 1214 - 1215 - 1216 - 1217 - 1218)

وهذه الملفات هي عبارة عن تقارير أمنية صادرة من سلطات الاستعمار الفرنسي بخصوص نشاط لحساسنة محمد العيد الجباري (السياسي والمغاربي)

إننا لو تتبّعنا آثار العلماء والطلبة الجزائريين في بلاد المشرق العربي ومساهمتهم في الأحداث السياسية فيها لربما انتهينا إلى وضع مجلد، ومن لا يعرف أنشطة عبد العزيز الثعالبي في مؤتمر القدس الأول سنة 1931م، وعلاقته الوطيدة بمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني وبمحب الدين الخطيب ورياض الصلح وغيرهم من أعيان الشام، وقد كان بينهم تعاون وثيق من أجل صياغة جديدة للمشروع الإسلامي والقومي ومواجهة الهجرة اليهودية والإيديولوجية الصهيونية[1].

وقد حطّ محمد الخضر حسين رحاله بأسرته في بلاد الشام قبل أن يصبح من كبار علماء الأزهر ثم شيخًا للأزهر أيام الثورة المصرية، ولمحمد الخضر تآليف دينية وأدبية وفكرية، وله باع في الصحافة والتدريس، وقد استقر أخوه زين العابدين في دمشق وساهم في نشر آثار أخيه، أما محمد البشير الإبراهيمي فقد أخذه الأتراك من المدينة المنورة سنة 1917م، أي بعد الثورة العربية، وفضّل الإبراهيمي في دمشق التدريس على السياسة، رغم أن الأمير فيصل الذي كان يعرفُه من المدينة المنورة عرض عليه بعض الوظائف إلا أنّه أبى وكان له رأي مختلف عن مسيرة الأحداث لم يفصح عنها إلا قليلاً، رغم أن مدّة إقامة الإبراهيمي في دمشق كانت قصيرة إذ رجع إلى الجزائر سنة 1920م، فإنَّه ترك بصماته على بعض تلاميذه الذين أصبحوا من المؤثّرين في الرأي العام ومنهم الأستاذ جميل صليبا[2]. فإذا نظرنا إلى ما سقناه بإمعان وبإنصاف خلال المرحلة السابقة والحالية والتي تليهما، فإننا نلاحظ أن العلماء المهاجرين من أبناء الجزائر كانوا في المشرق في طليعة العاملين من أجل النهضة العربية والاستقلال العربي، كما كان آباؤهم في طليعة المحافظين على رموز الثقافة العربية والإسلامية في المغرب العربي نفسه.

---

(1) الثعالبي (عبد العزيز)، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1988.
(2) سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص147.

على أن أشهر الجزائريين الذين قدّموا الكثير في المشرق العربي هو الجزائري مصطفى عبد القادر الأحول التفراوي، وهو سادس إخوته، ومن أهالي باب على بمدينة معسكر، رقم 94 شارع سيد يعلي الذين يعتز أهله بانتمائهم إلى أسرة الأمير عبد القادر الجزائري، ولد سنة 1892م بالجزائر، وتوفي يوم الجمعة 1982/8/6م بمنزله في مدينة طرابلس الغرب التي قدم إليها في نوفمبر 1914م[1].

ومن الصحف الجزائرية التي قامت بدور مشرّف في المشرق العربي "مجلة المنهاج" وقد أصدرها مؤسّسها الشيخ "أبو إسحاق إبراهيم أطفيش" في أكتوبر1925م، وكانت تُطبع بالقاهرة وتوزّع بالمغرب العربي وجميع أقطار البلاد العربية، تعالج قضايا المغرب العربي والجزائر خاصة، وتخصّص قسمًا كبيرًا من صفحاتها لمعالجة القضايا الإسلامية العامة، وكانت صادقة اللهجة، سلفية المنهج، عربية النّزعة على غرار مجلة "الفتح" التي كان يصدرها الأستاذ: محب الدين الخطيب، أو مجلة الرابطة القلمية التي كان يحرّرها الأستاذ محمد على طاهر، وما أن انقضت سنة من عمرها حتى ناجزتها السلطة الفرنسية العداء فمنعت نشْرها بالجزائر وتونس، كما منعت إيطاليا نشرها بطرابلس، وقد كان أنشأها الشيخ أبو إسحاق أطفيش وهو زيتوني نفته فرنسا من تونس بقرار إداري، حيث كان من أبرز الأعضاء العاملين في اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري ومن أكبر أعضائها بعد الشيخ عبد العزيز الثعالبي[2].

فبعد نفيه واستقراره بالقاهرة، اشتغل بالتأليف وطبع الكتب النافعة ومن جملتها "الدعاية في سبيل المؤمنين" و"رسالة النقد الجليل على العتب الجميل" وجدّد طبع كتاب "النيل المعتمد في المذهب الإباضي للمؤلف الشيخ عبد العزيز الثعالبي بشرح الشيخ محمد أطفيش" كما طبع كتاب "الذهب الخالص" وغيره من تآليف له في

---

(1) محمد (ميلاد مبارك)، "المجاهد مصطفى الجزائري، شيئ عن حياته وجهاده "، مجلة الشهيد، ع9/8، طرابلس: مركز الجهاد الليبي، أكتوبر (1986 ـ 1987)، ص305.

(2) مفدي (زكريا)، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، تح أحمد حمدي، الجزائر: منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، 2003م ص135.

الفقه الإباضي، وألف كتابًا ضخمًا في عدة أجزاء عن تاريخ الإباضية كما اشترك في عدة جمعيات إسلامية كجمعية "الشبان المسلمين"، و"الهداية الإسلامية" و"الرابطة الشرقية" التي كان يرأسها الأستاذ "أحمد زكي باشا" كما شارك في عدة مؤتمرات إسلامية، كالمؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقدس في سنة 1936م[1].

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية توظّف في القسم الشرعي بدار الكتب المصرية ويُعدّ من أبرز المصححين في القسم الشرعي بها، حيث عُهد إليه بتصحيح الطبعة الثانية من تفسير القرطبي، وكذا بعض الأجزاء من نهاية الأرب.. وجاء في تقريظها بجريدة المنتقد (13 أوت 1925م) على أنها "مجلة راقية وأنها أول نشرة جزائرية في الشرق، تقوم بنشر الحقيقة عن حالة الجزائريين في ظل الاستعمار الفرنسي وهي مجلة علمية اجتماعية وسياسية نصف شهرية تصدُر بالقاهرة غرّة كل شهر مؤقتًا عنوانها: المطبعة السلفية بشارع خيرت رقم40 ـ بالقاهرة ـ وكتبت عن المنهاج مجلة الوفاق التي كانت تصدرها شهريا البعثة الجزائرية بتونس، وذلك في عددها الممتاز رقم30، المؤرخ في 01محرم 1344هـ حيث قالت: "مجلة المنهاج" تحت هذا العنوان أصدر أستاذنا الجليل مجلته فتقبّلها الشعب المصري وشعب شمال إفريقيا بغاية الإعجاب والثناء وقد أسْهمت الصحف في الكلام عنها وتفنّنت ما شاءت في تقريظها وقد اتصلنا بالجزء الأول من هذه المجلة "والوفاق تحت الطبع" فإذا بالمنهاج قرّة عين الكمال وغرّة مفرق الأجيال، علم ناضج، أفكار سامية فلسفة دقيقة، أدب غض، جهاد مجيد، ولا عجَب فمؤسّسها هو ذلك النابغة الذي أخذت عنه الأمّة دروسًا في التضحية الوطنية فنرجو لمجلتنا الرواج وسعة الانتشار ولأستاذنا سداد الخطى، وعوْن الله الذي لا يضيّع أجر العاملين، وسنعود إلى المنهاج في عدد آخر[2].

---

(1) نفسه، ص 136.

(2) نفسه، ص(137 ـ 138).

6 ـ النشاط المهجري للعلماء الجزائريين خلال الفترة (1939مـ 1954م):

مما لاشك فيه أن العلماء والطلبة الجزائريين الذين شدوا الرحال إلى المشرق العربي، كانت لهم أوضاعهم الخاصة بهم حتى اختلفت جذريًا عن أوضاع زملائهم في أوربا أو أمريكا، وقد تمثلت الأوضاع الخاصة للطلاب الجزائريين في المشرق العربي في الظروف المادية القاسية الشاذّة من نوعها التي عاشها الطلاب سواء خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها أو التي سبقتها، مما جعل الطّلاب الجزائريون يواجهون في كل مواقف حياتهم الدراسية صعابًا قاسية مؤلمة، وقد ساهمت الثورة الجزائرية حينما اندلعت في تفاقم هذه الصعاب والظروف التي كان يعيشها الطلاب الجزائريون في المشرق العربي[1].

لقد كان العلماء والطلبة الجزائريون بالمشرق عموماً وبالقاهرة خصوصاً يشكّلون شريحة هامة في الجالية الجزائرية وكانوا على وعي سياسي كبير، لأنَّ معظمهم عانوا من ظلم الاستعمار الفرنسي قبل خروجهم من الجزائر، كانت معاناتهم سياسية وثقافية واقتصادية؛ وإذا كان زملائهم الدارسون في المدارس الفرنسية قد لا يحسّون بنفس المعاناة الثقافية، فإنَّ طلبة القاهرة كانوا يحسّون بمعاناة مضاعفة لأنهم كانوا مقتنعين أن الاستعمار الفرنسي هو الذي تسبّب في غربتهم ضد ثقافتهم العربية الإسلامية وسرَق هويتهم الوطنية، لذلك كانوا غير متسامحين مع الذين يتسامحون مع الاستعمار ولو ثقافيًا[2].

كما أن كثرة عددهم ونفوذهم في دوائر الطلبة العرب قادهم إلى التفكير في تكوين منظمة تجمعُهم، فكانت رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي، ولم يكن من السهل عليهم الانضمام إلى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين لولا قناعتهم بوحدة النضال ومواجهة العدو صفًا واحدًا، وكان بعض أعضاء

---

(1) هلال (عمار) نشاط الطلبة، ص 68، للتوسع حول هذه الظروف يراجع: شاوش (حباسي) "محطة في مسار الحركة الوطنية التونسية"، مجلة الدراسات التاريخية، ع07، الجزائر: 1993م، ص 145.

(2) نفسه، ج1، ص 30.

الرابطة يعتقدون أنهم أحق بقيادة الحركة الطلابية المناضلة وتمثيل القضية الجزائرية من زملائهم في قادة الاتحاد العام، لأنَّ القضية في نظرهم تعني تحقيق الهوية الثقافية للجزائر، بينما لا تمثل قيادة الاتحاد العام بتركيبتها البشرية وبآرائها تلك الهوية، وقد كان غالبية أعضاء الرابطة من الفئات الشعبية المحرومة، وهي نفس الفئات التي خرجت منها قيادة الثورة الأولى، ونتيجة لهذا الموقف الفكري الواضح أُتهم عدد من طلبة الرابطة بالبعثية والناصرية ومضادّة مقرّرات الصومام، وبالتالي ذهبوا ضحية اتهام باطل واختفوا عن الأنظار[1]، وعن أعداد هؤلاء الطلبة، كان قد سأل في ربيع 1954م الطالب علي مراد (ممثل فرع العاصمة لـ ج.ط.ش.أ.م» في رسالة بعث فيها إلى الطالب رابح تركي الناشط في الحركة الطلابية بالقاهرة عن أعدادهم وتوزيعهم حسب الكليات والمعاهد، وتضمّن ردّ هذا الأخير بتاريخ 23 افريل1954م المعلومات التالية: ـ كلية الآداب: حوالي 60 طالب من بينهم 14 طالبة. ـ كلية الحقوق: حوالي 60 طالب من بينهم طالبة واحدة. ـ كلية العلوم: 60 طالبا من بينهم 03 طالبات. ـ كلية الطب: 65 طالبا من بينهم 03 طالبات. ـ ـ معهد الدراسات العليا: 30 طالبا. ـ مدرسة تكوين القابلات والممرضات: حوالي 20 طالبة. أي أن مجموع الطلبة والطالبات يومئذ لم يكن يزيد عن 330 من مجموع 4500 طالب بجامعة الجزائر.

وقد أرفق "علي مراد" ردّه عل رسالة تركي رابح بتكليف هذا الأخير بأن يمثّل جمعية الطلبة بالجزائر في مؤتمر طلبة الشرق مشترطًا عليه، أن يُراعي موقف الطالب الجزائري من المستعمر، وختم التكليف بالعبارات التالية: «وما ترجوه جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا هو أن تبلّغ تحياتها الودية لإخواننا طلبة المشرق العربي ويُترجم عن عواطفنا المخلصة نحوهم، وأملنا في استرجاع مجدنا وإحياء هويتنا فليحيا شباب المشرق وليحيا شباب الجزائر عربًا أحرارًا»[2].

---

(1) نفسه، ص 14.

(2) عباس (محمد)، مثقفون في ركاب الثورة: ج2، الجزائر: دارهومة، 2004م، ص ص(60 ـ 61).

وعن نفس الظروف النضالية والمعاناة الاجتماعية ذكر مولود قاسم نايت بلقاسم عن أيام دراسته بالقاهرة (1950 ـ 1953م) قوله: «وكنت أنا مع قاسم رزيق على اتصال دائم بمكتب حزب الشعب الجزائري في القاهرة في إطار مكتب المغرب العربي الذي كان يضم الأحزاب المغاربية الثلاث وكان مقر المكتب دار واحدة، هي في الواقع شقة واسعة للمكاتب الثلاث... إلى أن انتقل المكتب المغاربي المشترك كل حزب بقسطه إلى شقة أوسع في 32 شارع عبد الخالق ثروت، وكنا دائمي الاتصال والتنسيق مع الإخوة هناك»[1].

كما ذكر سعد الله أبو القاسم شيئًا عن مشاركته في النضال الطلابي بمصر «وخلال إقامتي في مصر شاركت باسم الجزائر ـ بالإضافة إلى الدراسة ـ في بعض الأنشطة الطلابية كأسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية وأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي والتطوّع في جيش التحرير الجزائري، ونشاط الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وتنظيم مكتبة الحكومة المؤقتة ونشر المقالات والقصائد...»[2].

وللحديث عن مساهمات الطلبة الجزائريين ومشاركاتهم النضالية بمصر والمشرق العربي فردًا فردًا سيأخذ ذلك الحديث إلى جرد مجلدات ضخمة لا خاتمة لها، فمثلاً من الشخصيات الطلابية التي لا نعرف عنها الكثير لكن بالنظر إلى حجم دورها الطلابي بمصر نكون قد هضمنا حقها التاريخي في التذكير بها على الأقل: سعد بزيان 1931م، البشير كعيسي[3]، دودو أبو العيد (1934 ـ 2002)، ركيبي عبد الله 1928م.

---

(1) بن نعمان (محمد)، مولود قاسم نايت بلقاسم، ط2، الجزائر: دار الأمة، 1997م، ص20.

(2) سعد الله (أبو القاسم)، مسار قلم (يوميات)، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م.، ص10.

(3) ذكر الدكتور إبراهيم فخار في حديثه عن صالح الخرفي أن كعيسي كان رئيسًا للطلبة الجزائريين بالقاهرة باسم جمعية العلماء عام 1957م.

ـ راجع بلحاج (قاسم أحمد)، الشاعر صالح الخرفي، الجزائر: جمعية أنغام الحياة الثقافية، 2004م.ص68.

ولعلّ من أكبر الشخصيات الطلابية التي كان لها دور فعّال ومثمر في الحياة الطلابية بمصر هي شخصية الزيتوني الشاذلي المكي (1912 ـ 1988م) أصيل خنقة سيدي ناجي (بسكرة) أين وُلد وتعلّم حيث انتقل بعدها رفقة عائلته إلى تبسة وهناك عكف على الدراسة والتحصيل، ليلتحق بعدها بجامعة الزيتونة أين تحصل على شهادة التطويع، وهناك كان له نشاط طلابي كبير ـ سنذكره في حينه ـ حيث كان من المؤسسين لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، كما كانت له إسهامات ملحوظة في الأوساط السياسية والثقافية بتونس، وباندلاع الحرب العالمية الثانية أُلقي عليه القبض واعتقل بمنفى جنين بورزق (عين الصفراء) وبعد إطلاق سراحه تفرّغ للنضال السياسي السري ليُتّهم في أحداث 08 ماي 1945م، مما اضطره إلى السفر إلى عنابة ومنها إلى تونس ثم مصر، وكان الشيخ الفاضل بن عاشور هو الذي مكّنه من اجتياز الحدود التونسية الليبية، وفي مصر عمل ضمن نطاق الجامعة العربية ومنطقة شمال إفريقيا، وبعد اندلاع الثورة، وقَع له خلاف مع بن بلة، فقَبضت عليه السلطات المصرية مع أحمد مزغنة وأودعا السجن العسكري إلى غاية 1960م[1].

قال عنه الرشيد إدريس: «الأستاذ الشاذلي المكي هاجر إلى القاهرة في نفس المدة التي وصل فيها بورقيبة إلى القاهرة، وكنت أعرفه في تونس مسؤولاً عن الطلبة الجزائريين ومتّصلاً بجمعية العلماء، وتحصّل على نيابة من حزب الشعب الجزائري ورئيسه مصالي الحاج في مصر»[2].

وتحدّث عنه في موضوع آخر قائلاً: «لقد لقيت الأخ الشاذلي المكي يبذُل وحدَه الجهود للتعريف بالقضية الجزائرية والمغاربية، وكان مجهوده والحقّ يُقال مجهودًا جبّارًا، لأنَّ قضية الجزائر كانت قضية دقيقة وشائكة، وإن كانت لا

(1) بوشارب (عبد السلام)، تبسة (معالم وآثار)، الجزائر: المتحف الوطني للمجاهد، 1996م.، ص. ص (37 ـ 38).

(2) S.D.N، B5 ـ 43، doc n1 ـ الصباح 17 جوان 1980م.

تختلف في أصلها عن قضايا الأقطار المغربية الأخرى، أو الأقطار المنكوبة بالاستعمار، وبمناسبة الذكرى الثانية لحوادث 8 ماي 1945م نظّم الشاذلي المكي باسم حزب الشعب الجزائري احتفالاً منفردًا أحيا به ذكرى المجازر...»[1].

لقد تزامن نشاط مكتب المغرب العربي بالمشرق مع هيئة مغاربية أخرى ظهرت بالمشرق العربي هي جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية قال عنها كرو: «أنها تأسّست بعد الحرب العالمية الثانية من طرف الشيخ محمد الخضر حسين»[2]، هذا الأخير كان قد أسّس جمعية تعاون جاليات شمال إفريقيا سنة 1923م وتطوّرت نظرته إلى هذا الموضوع عبر السنين وأصبحت ذات صبغة سياسية برزت في تأسيس جمعية تدعى "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" إثر الحرب العالمية الثانية، وفي ذلك يقول مواعدة «إنه لم يعثر على معلومات تبيّن ظروف تكوين هذه الجبهة»[3]، والملاحظ هنا أن أفكار الشيخ الخضر حسين السياسية الوحدوية المغاربية لم تتطوّر خلال الفترة التي ذكرها الدارس لحياة الشيخ إنما كانت قبل ذلك كما سبق وبيّنا سلفًا في الحرب العالمية الأولى[4].

ويعود ظهور الجبهة إلى اجتماع القاهرة خلال مارس 1944م[5]، وهي بقيادة رجل يدعى الأمير المختار، ويُضيف أن أعضاء اللجنة كانوا من المهاجرين الجزائريين في المشرق، ولعلّ من بينهم مغاربة وتونسيون وستكون هي مقدمة لمكتب المغرب العربي أما عن ظروف نشأة الجبهة، فقد ورَد في مقال للأمير

---

(1) S.D.N، B5 ـ 43، doc n1 .الصباح 18 جوان 1980م ـ

(2) كرو (محمد أبو القاسم)، محمد الخضر حسين، تونس: دار المغرب العربي، 1973م، ص 05.

(3) مواعدة (محمد)، محمد الخضر حسين، تونس: الدار التونسية لنشر، 1974م، ص 119.

(4) للتوسع في نشاط الوطنيين التونسيين والجزائريين بالمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية يراجع: ـ شاوش (حباسي) المرجع السابق، مجلة الدراسات التاريخية، ع07، ص. ص(145 ـ 147). ـ الآجري، المرجع السابق، ج1، ص.ص(130 ـ 140)، ـ داهش، المرجع السابق، ص.ص(174 ـ 178). ـ الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص.ص(407 ـ 408).

(5) سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص 243.

مختار الجزائري بعنوان "كيف تكوّنت جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية؟" مفاده أن برقية أتتْهُ من "يافا" بفلسطين وهو في بيروت، في يوم من أيام ذي العقدة 1362هـ ونوفمبر 1943م، طلب صاحبه من الأمير الحضور إلى يافا، ولما قصدها وجد بها الشيخ الفضيل الورتيلاني في انتظاره، وجمعهما لقاء مع اثنين من الأصدقاء استعرضوا خلاله "أمجاد ماضي الجزائر والعرب والإسلام"، وبعد هذا اللقاء انتقل الأمير إلى القاهرة منفردًا ثم بعائلته حيث تم تأسيس (جمعية الجالية الجزائرية وكان في عضويتها شخصيات عربية وإسلامية، وكانت الهيئة على اتصال برجال من أبناء الجزائر أمثال الشيخ محمد الخضر حسين وإبراهيم أطفيش والفضيل الورتيلاني وغيرهم، وكانوا جميعًا يؤمنون بعدالة قضية المغرب العربي في وجه الاستعمار الفرنسي، ومن هنا تولّدت فكرة إيجاد هيئة جامعة تتناول قضية إفريقيا الشمالية الموحدة[1]، ومن ذلك أن رئاسة هذه الجبهة أُسندت إلى الشيخ محمد الخضر حسين، وتولى الفضيل الورتيلاني منصب السكرتير العام ومن أعضائها البارزين الدكتور محمد عبد السلام العبادي، وأحمد نجيب برادة، والحاج أحمد بن قايد ومصطفى (بك) بيرم، والشيخ إبراهيم أطفيش والشيخ إسماعيل علي والشيخ السعدي عمار والحاج اليمين الناصري ومن الشباب أبو مدين الشافعي وأحمد بن المليح وحمود بن قايد وأحمد السعدي ومحسن بيرم[2].

ولقد كان العنصر الفعّال في تسييرها هو الشيخ الفضيل الورتيلاني الذي كان أمينها العام، حيث بذل جهودًا كبيرة في سبيل خدمة قضايا الجزائر والمغرب العربي[3]، ولقد

---

(1) الورتيلاني (الفضيل)، الجزائر الثائرة، الجزائر: دار الهدى، 1992م، ص.ص(284 ـ 286).

(2) عبد الباقي (علي محمد)، " أصداء الثورة الجزائرية في الشرق العربي من خلال جهود الورتيلاني"، مجلة سيرتا، ع 7/6 الجزائر: جويلية 1982م، ص 45.

(3) مرحوم (علي)، "مواقف من جهاد الفضيل الورتيلاني" الثقافة، ع34، الجزائر: أوت/سبتمبر 1976م، ص.ص(56 ـ 58) للتوسع يراجع: ـ عبد الغفار: المرجع السابق، ص.ص(145 ـ 155)، ـ بوصفصاف، جمعية العلماء، ص 348.

سعى في إطار الجبهة بالتعريف بقضية الأقطار المغاربة، فندّد بالاستعمار الفرنسي وقدّم مذكرات احتجاج إلى الهيئات الرسمية وعقد ندوات ومؤتمرات عدّة في هذا السياق، ومن الواضح أن الجبهة تأسّست بهدف تحقيق استقلال المغرب العربي ووحدته، ومن الذين انظموا إلى الجبهة من تونس الشيخ محي الدين القليبي من الدستور القديم، والحبيب بورقيبة من الدستور الجديد[1]، ومن الجزائر الصديق السعدي ومحي الدين القلي[2]، وقد استمر العمل المتحد بين أعضاء الجبهة إلى غاية سنة انعقاد مؤتمر المغرب العربي عام 1947م وكانت الجبهة على اتصال بمنطقة المغرب العربي بواسطة الحجاج المغاربة وعن طريق الصحافة[3].

وانحصرت أعمال الجبهة في الأمور الآتية، إطلاع الرأي العام في المشرق بأوضاع إخوانهم في المغرب العربي ولفْت انتباه قادة العرب من ملوك ورؤساء وشخصيات سياسية بقضايا المغرب العربي وغالبًا ما انتهزت الجبهة فرصة المناسبات الدينية والوطنية لتهنئتهم والاتصال بهم والتحدّث إليهم عن أحوال المنطقة وتوجيه المذكرات والبرقيات إلى الدول العظمى، حاولت الجبهة كذلك الاتصال بالشعوب العربية في المشرق العربي، إذ أوفدت أمينها العام الشيخ الورتيلاني في جويلية 1946م إلى سوريا ولبنان «لإثارة الرأي العام فيها عن قضية المغرب العربي بواسطة المحاضرات والصحافة والاتصال برجال الحكم والنوّاب والزعماء والهيئات»[4]، وكان يعينُه في ذلك عدد من المهاجرين الجزائريين أمثال: زين العابدين بن حسين، و(أخي الخضر حسين)، والأمير مختار الجزائري، والأمير سعيد الجزائري...[5].

---

(1) مواعدة، المرجع السابق، ص 120.

(2) محمد فضلاء (حسن)، من أعلام الإصلاح، ج3، ص 75.

(3) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 270.

(4) الفضيل الورتيلاني، المصدر السابق، ص 287.

(5) الرويسي (يوسف)، «نشاط مكتب المغرب العربي بدمشق"، م.ت.م، ع12، تونس 1978م، ص 209.

ويبدو أن الجبهة قد انحلّت خلال سنة 1948م، فآخر بيان لها صدر في 1948/04/24م موقّع من طرف الرئيس الشرفي للجبهة "عبد الكريم الخطابي" والرئيس "محمد الخضر حسين" يدعو النداء الأهالي إلى الاتحاد في مكافحة الاستعمار وإلى نبذ الخلافات الحزبية[1].

ومن الجمعيات المغاربية الأخرى التي ناضل تحت لوائها العلماء والطلبة الجزائريون قبل تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة نذكر مثلاً:

ـ جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية:

جاء في جريدة الوزير[2] التونسية عن ظروف تأسيسها ومبادئها وأهدافها، ومن بين أعضائها الجزائريين الأستاذ محمد الرزقي والدكتور عبد السلام العبادي، ولما «عقد مجلس الإدارة اجتماعًا لانتخاب الرئيس، انجلى الانتخاب عن اختيار حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الخضر حسين»[3].

ـ جمعية مجاهدي أفريقية الشمالية:

هي مثلها مثل جمعية مهاجري إفريقيا وربما هي امتداد لها حيث جاء في جريدة الدفاع ليوم الأربعاء 1949/01/03م، نداءً صادرًا عن فرقة الأمير عبد القادر الجزائري، بخصوص عقد مؤتمر عام لتحرير إفريقيا والتي يقصد بها في أدبيات المهاجريين الجزائريين (بلدان المغرب العربي)، ومن المعروف أن فرقة الأمير عبد القادر التي منه كتيبة المغاربة لتحرير فلسطين وقد انبثقت عن جمعية مجاهدي إفريقيا الشمالية التي أصدر رئيسها الأمير سعيد في 1948/01/12م يحثّ فيه على الجهاد ضد الصهيونيين[4].

---

(1) بن العقون، مذكرات، ج3، ص.ص (60 ـ 61).

(2) الوزير، ع 175، تونس: 23 سبتمبر 1924م.

(3) نفسه.

(4) الخالدي (سهيل)، المرجع السابق، ص. ص (166 ـ 167).

ـ جمعية الدفاع عن أفريقية العربية:

تأسّست هذه الجمعية في دمشق إثر اجتماع عُقد في منزل مفتي المذهب المالكي في سورية الشيخ محمد مكي الكتاني أحد علماء المسلمين المهاجرين من المغرب الأقصى وجرى الاجتماع في جوان 1946م، وقد نصّت المادة الثانية من القانون الأساسي لهذه الجمعية «غايتها هي جمع كلمة المهاجرين وتقوية الروح الوطنية والروابط القومية والتعريف بقضية البلاد الإفريقية العربية، وقد كان من مؤسسي الجمعية شخصيات جزائرية ومغاربية مهاجرة أمثال: أحمد جودت الهاشمي، كامل عيادة، عبد الغني البجقني، هادي النيس، كامل التونسي، على الجزائري، عمر فرحات، حسن فرحات، محمد المبارك مطيع المرابط وغيرهم من الشخصيات المغاربية»[1].

ـ جمعيات تحرير المغرب العربي في دمشق وبيروت:

يبدو أن جمعية تحرير المغرب العربي هي اسم آخر قد يكون وارثًا لجمعية الدفاع عن إفريقيا العربية حيث أقيمت في لبنان جمعية في نفس الفترة تحمل نفس الاسم مركزها الرئيسي في بيروت ويرأسها السيد عبد السلام بوعزة الجزائري، التاجر المعروف بتجارة الترانزيت حيث اشتهرت بأنشطتها المتنوعة والمكثفة لصالح استقلال دول المغرب العربي بالتنسيق مع لجنة التحرير المغرب العربي في القاهرة، وضمت في عضويتها من الجزائريين، محمد علي الحسيني الجزائري، عمر فرحات، حسين فرحات، محمد المبارك[2]، فقد ورد في تقرير قدّمته هذه اللجنة عام 1948م إلى مؤتمر اليونيسكو في بيروت يحمل عنوان "حالة التعلّم بالمغرب العربي في ظل الاستعمار العالي الفرنسي" وهو عبارة عن كتيب يحتوي ثلاثة تقارير ومقدمتين إحداهما لرئيس الجمعية في لبنان (عبد

---

(1) نفسه، ص 169.

(2) بشيري (أحمد)، الثورة الجزائرية والجامعة العربية، الجزائر: منشورات تالة، 2005م، ص ص 54 ـ 57.

السلام بوعزة)، أما التقرير الأول فعن الحالة التعليمية والثقافية في الجزائر وقّعة الشاذلي المكي، موفَد حزب الشعب الجزائري إلى المشرق العربي[1].

وقد كان الشيخ الورتيلاني قد أسّس بالقاهرة مكتبًا لجمعية العلماء في سنة 1949م كما انخرط في القاهرة في العديد من المنظمات الإسلامية، وساهم في نشاطها الدعوي وكتب في أغلب الصحف والمجلات المشرقية، كما كان على صلات وثيقة بكثير من أعلام الفكر والإصلاح في المشرق أمثال: شكيب أرسلان الإمام حسن البنا، محي الدين الخطيب، رشيد رضا، محمود عباس العقاد، كما ساهم في تأسيس العديد من الهيئات السياسية منها، اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر 1942م وجمعية الجالية الجزائرية 1942م...[2].

وكان لانعقاد مؤتمر المغرب العربي في (1947/02/16م) أثره العميق في حركة بلدان شمال إفريقيا بالمشرق وفي الحركات الوطنية داخل الأقطار الثلاثة خاصة وأن المؤتمر رُوعي فيه أن يكون الممثلين من الحركات القائمة في شمال إفريقيا حتى يكتسب صفة الإجماعية التي تعطي لقراراته قوة تأييد الأحزاب برمّتها، وبفضل هذا المكتب أصبحت القاهرة مطمح الذين يهتمون بالشؤون المغاربية ومحجّ الوافدين من شمال إفريقيا إلى درجة توصلت معها الحكومة المصرية لتلقي احتجاج من السفارة الفرنسية التي اعتبر المكتب قضية توزيع أوراق التعريف والجوازات الخاصة في إطار تسهيله عملية التعليم للطلبة الوافدين[3].

---

(1) الخالدي، المرجع السابق، ص. ص (172 ـ 173).

(2) بورنان (سعيد)، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر، ط2، الجزائر: دار الأمل، 2004م، ص.ص(186 ـ 187).

(3) جربال (دحو)، جيش التحرير المغاربي، الجزائر: مؤسسة محمد بوضياف، 2004م، ص 150، يراجع السروجي (محمد محمود)، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الاستقلال، القاهرة: مطبعة المصري، ب.ت، ص.ص(225 ـ 226).

لقد ساهم مكتب المغرب العربي في إخراج القضية المغاربية من دائرتها الضيقة إلى المحيط الدولي بوجه عام، والمحيط العربي أصبح بوجه خاص، وقد صرحت مجلة فرانسFRANCE: «أن مكتب المغرب العربي أصبح نوعيًا امتدادًا من امتدادات الجامعة العربية أو قسمًا مكملاً لها»[1] ومن الأنشطة التي قام بها الجزائريون بالمشرق أنهم شكّلوا كتيبة داخل فيلق الطلبة العرب وشاركوا في معركة قناة السويس[2]، وكان الاتجاه الراديكالي الداعي إلى العمل المسلح يتزايد داخل مكتب المغرب العربي فبعد سنة واحدة من تشكيل المكتب، تكوّنت في جانفي 1948م لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة عبد الكريم الخطابي، وأصبحت المسألة الرئيسية هي التنسيق بين مختلف الأحزاب الوطنية المغاربية لإعلان الكفاح المسلح في كل شمال إفريقيا ووقّع في تاريخ 29 ماي 1954م بالقاهرة على ميثاق لاتحاد كومندو شمال إفريقيا، وقد سبقه اتفاق سري أبرم في 1951م، ما بين ممثلي كل من حزب الاستقلال وحزب الدستور الجديد وحركة انتصار الحريات الديمقراطية بحيث وجهوا حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وخاصة المنظمة الخاصة عن دعم للتموين وشبكات لتمرير الأسلحة في بداية الخمسينات ووجدوا مبتغاهم بالقرب من ثوار جنوب تونس، وليس من الصدفة أن يلقّب أوائل رجال المقاومة الجزائرية من طرف الفرنسيين "بالفلاقة"، لقد لعب مكتب المغرب العربي بالقاهرة دورًا طلائعيًا في إنجاز الوحدة السياسية والمغاربية بصفته مؤسسة انبثقت عن الحركة الوطنية المغاربية بالذات، كما كان امتدادًا دوليًا للكفاح الوطني داخل بلدان المغرب العربي.

---

(1) مكتب المغرب العربي، مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة من (15 إلى 22 فيفري 1947)، مصر: مطبعة المكتب الثقافي الدولي ب.ت، ص.ص(225 ـ 226). يراجع: ـ الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 380.

(2) جربال، جيش التحرير، ص157.

إن النشاط الطلابي المهجري بما فيه نشاط مكتب المغرب العربي بالقاهرة قدّم مساهمة تكميلية في مناهضة الاستعمار الفرنسي لا يمكن إغفالها، ولعل الهدف الرئيسي من هذا المبحث يتجلى في إبراز الدور الطلائعي الذي امتاز به الطلبة الجزائريون بالمهجر، حيث جاء تأسيس مكتب المغرب العربي في دمشق سنة 1946م، قبل تأسيس مكتب القاهرة، إلا أن التنسيق بين المكتبين كان محكمًا، سواء على مستوى التصوّر والخطة السياسية أو على المستوى العملي التطبيقي، ثم تأسس مكتب المغرب العربي بنيويورك سنة 1947م إلا أنه لم ينجح في إدماج عناصر المغرب العربي حيث اقتصر على مناضلي المغرب الأقصى، بينما قام التونسيون والجزائريون بأنشطتهم على انفراد، قامت جماعات وجمعيات أخرى في برلين وباريس وجنيف بالدعاية لقضية المغرب العربي منذ الثلاثينات لحصوله على الاستقلال.

الخاتمة:

لقد حاولت في هذه الدراسة دون أن أدّعي بأنها قامت بالتأسيس لنظرة جديدة تجاه جملة من المفاهيم والقضايا، أن أُحضِّر لجملة من المعطيات حول موضوع استهلكت جوانبه العامة بحثاً، وأيضاً قمت بمجهود تركيب هذه المعطيات عسى أن أقف عند بعض التساؤلات التي قد تبدو مركزية وسهلة أحياناً أخرى، وهي في كلتا الحالتين عناصر للتفكير ليس إلا.

ومن الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها هو أن النخب الجزائرية المهاجرة إلى المشرق التي قادت مسيرة الحركة الوطنية الجزائرية طيلة المرحلة الاستعمارية نجحت في أن تثري قضية الوحدة العربية بأدبيات سياسية وفكرية متنوعة، كما أنها تمكنت أيضاً من توظيف هياكل التنسيق والنضال المشترك لخدمة المسألة الوطنية الجزائرية لكن الذي تعثرت في إنجازه هو إسهامها في خلق وعي قومي وحدوي حقيقي قوامه الوحدة السياسية بعد الاستقلال.

وقد تصعب المقارنة حين تريد البث في محددات تعثر بروز وعي قومي وحدوي حقيقي لمقتضيات منهجية لعل أهمها أن مفهوم الوعي القومي ذاته مازال تساؤلات وإشكاليات لم تستنفذ بعد، لكن الغالب ودون أن نجزم في ذلك أن العامل الإيديولوجي كان مقدرًا لحصول مثل هذا التعثر بشهادة علال الفاسي: «إن أول مواطن النقص في هذه الحركات هو ما يرجع إلى تكوين النظرية.. وأعني به ما يتعلق بخلق برنامج مفصل للنظام الاقتصادي والسياسي الذي يجب أن يكون عليه في وقت استقلاله...».

إن هذا النشاط الفيّاض للنخبة العلمية المهاجرة إلى المشرق العربي كان يعكس من جهة الحالة الواقعية لنضجهم السياسي، ومن جهة أخرى نوعية وحقيقة التحوّلات التي سيشهدها المجتمع الجزائري فيما بعد الاستقلال، فالمكانة التي كان يحتلها العنصر الجزائري ضمن تلك الحركية الجماعية هي التي كانت من أهم أسباب انبعاث النهضة في تلك الأقطار.

إن أنشطة العلماء الجزائريين (السياسية والجمعوية والصحفية والنقابية والفكرية والأدبية...) تحيلنا إلى تبني نتيجة مهمة وهي حيوية فكر النخبة الجزائرية المهاجرة، فرغم الركود الذي كان يصيب العالم الإسلامي والعربي حينها بسبب الهجمة الاستعمارية الأوروبية عليه، إلا أن بعض الجزائريين كانوا يتفاعلون مع أحوال عصرهم ويهتمون بأحوال إخوانهم المسلمين في الأقطار الأخرى وأحياناً كثيرة كانوا يسبقون ذلك العصر ببعض الأفكار المتقدة في مختلف الميادين.

كما نلاحظ أن منطلقات النخب الجزائرية المهاجرة كانت منطلقات ثقافية مضمرة في شخصيتهم من غير تكلف وموارية والتي هي في الأخير وعي مدرك بقضية الوحدة وإيمان يقيني بضرورة التوّحد، بل أن المنطلقات نفسها شكّلت في فترة زمنية سابقة رهاناً حقيقياً في مصير الجزائر، ذلك أن تصفحنا لبرامج وأهداف

ومطالب الهيئات والجمعيات التي أسسها المهاجرون الجزائريون بالمشرق العربي ينتهي بنا إلى خلاصة واحدة وهي اقتران المطلب الوطني القطري بالمطلب القومي الملي من غير تناقض بينهما.

وعموما فقد تميّز النشاط الذي قام به الجزائريون منذ مطلع القرن العشرين حتى منتصف الخمسينيات منه في جلّ مراحله بالحيوية والاندفاع والعمل الدائب، كما كان هذا النشاط متلاحقًا توارثته الأقلام كما الأجيال وتفرّد كل جيل بخصوصية المرحلة التي عاشها ومثلما ساهم في توسيع دائرة هذا النشاط نخبة من المهاجرين بأفكارهم وآرائهم فقد ساهم في تزكيته ومتابعته بحرص فلول من المهاجرين الجزائريين بأنفسهم وأموالهم وأقلامهم، وإجمالاً فإن النشاط الوطني الذي بذله الجزائريون في المشرق العربي خلال القرن العشرين كان أوضح مواجهةً وأشد وطأةً على الاستعمار من ذلك النشاط الذي بذله الأسلاف في المرحلة السابقة.

